علي الطنطاوي

دمشق

صور ... من جمالها
وعبر ... من نضالها

دار المنارة
للنشر والتوزيع
جدة - السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

دمشق

صور ... من جمالها

وعبر ... من نضالها

الرقم الاصطلاحي: ١١٠،٢٦٠٠٢٦
الرقم الموضوعي: ٨١٠-٩٣٠
الموضوع: أدب عربي - تاريخ
العنوان: دمشق صور من جمالها وعبر من نضالها
التأليف: علي الطنطاوي
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: مطابع سيكو - بيروت
عدد الصفحات: ١٦٠ ص
قياس الصفحة: ١٧×٢٥سم
عدد النسخ: ١٥٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق - سورية
برقياً: فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.Fikr.com/
E-Mail: Info @Fikr.com

إعادة 1997
الطبعة الثانية
1407 هـ = 1987 م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوب إليه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ،

اللهم اجعل عملي هذا خالصاً لك

اللهم إنّي أسألك أن تنفع به ، وأن تثيبني عليه

وَصَلِّ اللهم على سيّدنا محمّد معلّم الخير وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان .



دمشق

(دمشق !) ، وهل توصف دمشق ؟ هل تصور الجنة لمن لم يرها ؟ من يصفها وهي دنيا من أحلام الحب وأمجاد البطولة وروائع الخلود ؟ من يكتب عنها ـ وهي من جنات الخلد الباقية ـ بقلم من أقلام الأرض فانٍ ؟

دمشق : التي يحضنها الجبل الأشم الرابض بين الصخر والشجر ، المترفع عن الأرض ترفع البطولة العبقرية ، الخاضع أمام السماء خضوع الإيمان الصادق . دمشق التي تعانقها الغوطة ، الأم الرؤوم الساهرة أبداً ، تصغي إلى مناجاة السواقي الهائمة في مرابع الفتنة ؛ وقهقهة الجداول المنتشية من رحيق بردى ، الراكضة دائماً نحو مطلع الشمس[1] ، تخوض الليل إليها لتسبقها في طلوعها ؛ وهمس الزيتون الشيخ الذي شيبته أحداث الدهر فطفق يفكر فيما رأى في حياته الطويلة وما سمع ، ويتلو على نفسه آيات حكمته ؛ وأغاني الحور الطروب الذي ألهاه عبث الشباب ولهو الفتوة عن التأمل والتبصر ، فقضى العمر ساحباً ذيل المجون مائساً عجباً وتيهاً ، خاطراً على أكتاف السواقي ، وعلى جنبات المسارب ، يغازل الغيد الحسان ، من بنات المشمش والرمان ، ويميل عليها ليقطف في الربيع وردة من خدها ، أو ثمرة من قلائد نحرها ، ثم يرتد عنها يخاف أن تلمحه عيون الجوز الشواخص ، والجوز ملك الغوطة جالس هناك بجلاله وكبريائه ، جلال ملك تحت تاجه ، وعاهل فوق عرشه .

دمشق : التي تحرسها (الربوة) ذات (الشاذروان) وهي خاشعة في محرابها

---

(١) يجري بردى من الغرب إلى الشرق .

الصخري تسبح الله وتحمده ، على أن أعطاها نصف الجمال حين قسم في بقاع الأرض كلها النصف الثاني . وما الربوة إلا حلم ممتع غامض يغمر قلب رائيه بأجمل العواطف ، التي عرفها قلبٌ بشري ، فيذكّر كل إنسان بليالي حبه ، وساعات سعادته ، ثم يتصرّم الحلم ويستحيل إلى ذكرى حلوة لا تمحوها الأحداث ، ولا تطغى عليها سيول الذكريات . الربوة : لحن من ألحان السماء ألقته مرة واحدة في أذن الأرض . الربوة هي الربوة لمن يعرفها وكفى !

دمشق أقدم مدن الأرض قدماً ، وأكبرها سناً ، وأرسخها في الحضارة قدماً . كانت مدينة عامرة قبل أن تولد بغداد والقاهرة وباريس ولندن ، وقبل أن تنشأ الأهرام وينحت من الصخر وجه أبي الهول ، وبقيت مدينة عامرة بعدما مات أترابها واندثرت منهن الآثار ، وفيها تراكم تراث الأعصار ، وإلى أهلها اليوم انتقلت مزايا كل من سكنها في سالف الدهر ، ففي نفوسهم من السجايا مثل ما في أرضها من آثار التمدن وبقايا الماضي طبقات بعضها فوق بعض . فالحضارة تجري في عروقهم مع الدماء ، وهم ورثتها وحاملو رايتها ، وهي فيهم طبع وسجية ؛ ولقد تكون في غيرهم تطبعاً وتكلفاً ، فأي مدينة جمع الله لها من جمال الفتوة ، وجلال الشيخوخة ، كالذي جمع لدمشق .

واصعد جبل دمشق حتى تبلغ قبة النصر (التي بناها برقوق سنة ٨٧٧ للهجرة ذكرى انتصاره على سوار بك)[١] . ثم انظر وخبرني هل تعرف مدينة يجتمع منها في منظر واحد مثل ما يجتمع من دمشق للواقف عند قبة النصر ؟ انظر تر البلد كله ما يغيب عنك منه شيء : هاهنا قلب المدينة وفيه الجامع الذي لا يقوم على ظهر الأرض جامع مثله ، وها هي ذي مناراتها التي تعد مئة وسبعين

---

(١) هدمها المستعمرون خلال الحرب الثانية وكانت رمز دمشق ، أما القبة الثانية ، فقد بناها الأمير سيار الشجاعي وسميت باسمه .

منـارة ، منهـا عشرون من أعظم منـارات العـالم الإسـلامي ، قـد افتن بنـاتها في هندستها ونقشها ، فاختلفت منها الأشكال واتفقت في العظمة والجلال ، لا كآذن بغداد التي لا يختلف شيء منها عن شيء ، فإذا أبصرت منها واحدة ، فكأنما أبصرتها جميعاً . يحف بذلك كله الغوطة الواسعة التي تبدو للناظر كأنها بحر من الخضرة قـد نثرت فيها القرى التي تنيف على العشرين عداً ، أكبرهـا (دومـا) ذات الكروم ، (وداريّا) التي تفـاخر بعنبهـا كل أرض فيهـا عنب ، (وحرَسْتـا) بلـد الزيتون ومنبت الإمـام محمـد صـاحب أبي حنيفـة ، (ومسرابـا) وهي حـديقـة ورد ، وكفرسوسية[1] ، وكفر بطنا ، والأشرفية ، وصحنايا ، والمآذن وهي ماثلـة خلال الأشجـار ، ووراء الغوطـة سهول المـزة عن اليمين ، وسهـل القـابـون عن الشمال ، وبطـاح من الأمـام ، وسهـول تمتـد إلى الأفـق ، حيث تغيب الجبـال البعيـدة في ضباب الصباح ، ووهج الظهيرة ، وصفرة الطفَل ، وسواد الليل .

إنك تشمل هذا كله بنظرة منك واحدة وأنت قائم مكانك ، فأين يا صديقي القارئ ترى مثل هذا ؟

وبردى ؛ لما قدم شـاعر العرب عـاصمـة العرب ومر على بردى وهو يمشي بين قصر أمية ودار البلدية مشية العاجز الهرم ، قال له صاحبه مستقلاً بردى مستخفـاً به : أهذا الذي ملأت الدنيـا مـدحـاً لـه ؟ إنـه (ترعـة) من ترع النيل ؟ يظن صـاحب شوقي أن النهر بكثرة مـائـه وبعـد ضفّتيـه . مـادرى أن بردى هو الـذي يجري في الوادي زاخراً متـوثبـاً نشيطـاً ، لا الـذي يجري في (المرجـة) متهـافتـاً كليلاً ، وأنه هو الذي أطعم دمشق الخبز ، وهو الـذي زرع بسـاتين الغوطـة ، وهو الذي أنار دمشق بـالكهربـاء وسيَّر فيهـا وفي غوطتهـا (الترام) ، وإذا قـال النيل لبردى أنت ساقية من سواقيّ ، قال قاسيون للمقطم : أنت هضبة من هضابي . وأنه هو الذي لا تضيع قطرة منـه واحـدة على حين يمرّ النيل على القـاهرة مرّ الكرام ،

(١) الكفر : بالفتح القرية ـ معرّب .

يقرأ عليها السلام . ثم يحمل خيره كله ليلقيه في البحر لا يمنح القاهرة منه إلا ماتأخذه بالمضخات والنواعير التي لا تسير إلا بمال . فمن رأى مثل بردى - في بره بأرضه وكثرة خيراته - نهراً ؟ من ذاق أطيب من مائه ؟ من أبصر أجمل من واديه ؟



لقد علّم بردى أبناءه الولع بالخضرة والظلال ، وحبّب إليهم أفانين الجمال ، فصارت النزهة (السيران) من مقومات الحياة في دمشق لا تحيا أسرة إلا بها ، ولا تستغني عنها ، فهي لهم كالغذاء ، فهل يستغنى عن الغذاء ؟ هل يمكن أن يجيء يوم صائف من أيام الشتاء فتبقى دمشقية أو يبقى دمشقي في بيته لا يؤم (المهاجرين) ، حيث يجتمع - على الشعاف والصخور وفي ظلال الآس - الرجالُ والنساءُ على طهر وعفاف ، وتدور أكواب الشاي (الأخضر) خمر المسلمين ، وتنطلق بالغناء الساحر أوتار الحناجر ، وتجري خيول السبق في ساحة الجريد ؛ ثم إذا جاء وقت الصلاة قاموا إليها فلا ترى إلا جماعات وأئمة[1] ، ثم ينفض اجتماعهم عن طرب وفروسة وعبادة ، وتلك هي المثل العليا لأهل الشام .

وهل تمر أمسية من أمسيات الصيف على دمشقي قاعد في دكانه أو قابع في بيته ؟ تعال انظر جماعتهم في قهوات (شارع بغداد) ، وفي كل قهوة مؤذنها (إي والله) وإمامها ، وعلى ضفاف بردى عند (صدر الباز) وفي (الميزان) أجمل موضع في دمشق ، وأمامهم سماورات الشاي الصُّفر الرشيقة ، وفي كل حلقة مغنيها ، وليس مثل الشاميين في الولع بالغناء ، فلا ينفرد الرجل بنفسه إلا غنى لها ؛ فالفلاح وهو نازل من قريته مع الفجر يغني ، والحوذي وهو يسوق عربته إلى (جسر تورا) أو إلى (كيوان) يغني ، وأجير الخباز وهو يحمل المعجن على رأسه يغني ، ونداء الباعة كله غناء وشعر .

---

(١) كتبت هذا الكلام في سنة ١٩٣٤ م .

قف ساعة على ظهر الطريق واسمع ما ينادي به الباعة ترعجباً لا شبيه له في البلاد ؛ قصائد من الشعر غير أنها مرسلة القوافي وطرائف من الغناء غير أنها محلولة القيود ، تمشي إلى القلوب طليقة حرة لاتسمي شيئاً باسمه ؛ وإنما هي مجازات وكنايات عجب منها بعض من كتب عن دمشق من سياح الأفرنج فتساءل في كتاب له عمن نظم للباعة هذه الأشعار الرقاق !

وتعال استمع هذا البائع وهو يتغنى بصوت يقطر عذوبة وحناناً (يا غزل البنات ، ياما غزلوك في الليالي ، يا غزل البنات) ويضغط على (الليالي) ويمد (البنات) ، هل يستطيع قارئ أن يحزر ماذا يبيع هذا المنادي ! لا لن أقول فتعالوا إلى دمشق لتأكلوا غزل البنات . وهذا بائع يهتف بكلمة واحدة لا يزيد عليها (الله الدايم) هل يقع في حسابك أنه يبيع (الخس) ، وأن (يا مهوّن يا كريم) نداء بائع (الكعك) عند الصباح ، وأن من الباعة من ينادي بالحكم الغوالي كهذا الذي ينادي : (ويل لك يا ابن الزنا يا خاين) فيفهم الناس أنه بائع (الترخون) .

أولا يطربك ويثير سواكن أشجانك بائع العنب حين تدنو أواخره فينادي بصوت حزين (هدوا خيامك وراحت أيامك . مابقي بالكرم غير الحطب يا عنب ، ودّعْ والوداع لسنة يا عنب) ألا تحس كأنه يودع حبيباً له عزيزاً عليه ؟ وبائع العسل (أي الشمندر) وقد أوقد ناره في الصباح البارد ، ووضع (حَلته) وصفف رؤوس الشمندر الأحمر[1] ونادى في أيام الشتاء (بردان ! تعال صوبي بردان . أنا بياع العسل) ألا يحبب إليك أكل العسل ؛ واسمع العجائب في نداء بائع الملفوف (اليخنا) : (يخنا واطبخ ، والجارية بتنفخ ، والعبد عَ الباب ، يِقلّع الكلاب) وبائع الحمص المسلوق (البليلة) : (بليلة بلبلوك ، وسبع جوار

(١) ومما رأيت في العراق أنهم يأكلون بدل الشمندر : اللفت المسلوق ويدعونه الشلغم !

خدموك ، يا بليلة) ، وبـائع الزعرور : (أبيض أحمر يـا زعبوب ؛ تمر محنّى يـا زعبوب ، البزر بن يـا زعبوب) واستمع إلى الشعر والخيـال في نـداء بـائع الجرادق (ياما رماك الهوا ، وقلبي انكوى ، يا ناعم) . وبائع التين (دابل وعلى دبالك يا عيون الحبيب ، ومن دباله يمشي لحاله) وبائع الباذنجان (أسود ومن سواده هرب الناطور) ألا تعجبك صورة الناطور وقد هرب من سواد الباذنجان ؟

وهذا كله من ولع الشاميين بالغناء وإقبـالهم عليـه حتى انعقـد إجمـاع فقهـاء الـذوق فيهم على أنـه لا يصح اجتماع أو سمر إلا بـالغنـاء ؛ وإذا سهـا عنـه سـاه ، فكفارته إطعام عشرة أصدقاء صدر كنافة شامية ، أو صـدر (كل واشكر) أو غير ذلك من الحلويات التي لا يخالف أحد في أن دمشق أبرع مدينة في صنعها .

والـدمشقيـون أكرم النـاس ، وأشـدهم عطفـاً على الغريب وحبـاً لــه ، فهم يؤثرونـه على الأهل والولـد ؛ ومـدينتهم من أنظف المـدن لتـدفـق مـائهـا وكثرة أنهارها ، ووصولها إلى الأحيـاء كلهـا ودخولهـا البرك في الـدور ، حتى لا يخلو حيّ من نهر . فنهر (يزيـد[1]) يسقي الصـالحيـة ، و (تورا) يسقي العقيبـة وسـوق صـاروجـا ، و (بـانـاس) يسقي القيمريـة ، و (قنوات) يسقي حي القنوات ، وقد أخذت مياه عين الفيجة ـ وهي من أصفى العيون وأعذبها تنبع من جبل على عشرين كيلاً من دمشق ـ فسيِّرت مياهها في بطون الجبال ، حتى أبلغت دمشق ، فأدخلت دورهـا ، فشرب منهـا النـاس أعـذب مـاء وأبرده . والشـاميون مولعون بالنظافة والطهارة ، حتى أنه ليعدُّ من أكبر عيوب المرأة ألا تغسل أرض دارها كل يـوم مرة أو مرتين بـالمـاء غسـلاً وتمسـح جـدرانـه وزجـاجـه ، على رحب الـدور الشامية ، واتسـاع صحونهـا ، وكثرة مرمرهـا ورخـامهـا[2] . وادخل المسـاجـد تر بلاطها يلمع كالمرايا ، ويحبب الصلاة إلى من ليس من أهلهـا . وعرج على المطـاعم

(١) نسبه إلى يزيد بن معاوية .

(٢) رحمة الله على تلك الدور .

تبصر الأطعمة مصفوفة أمامك في القدور الصغار النظاف بأناقة تجيع الشبعان ، ونظافة تطمئن إليها نفس المَوَسوِس[1] . أما ألوان الطعام في الشام فلا يضاهيها شيء في غيرها ، وما أكل الغريب في دمشق حلواً ولا حامضاً ولا حاراً ولا بارداً إلا استطابه وفضله على طعام بلده ، وما استطاب الشامي في غير بلده طعاماً قط . وخير مطاعم مصر والعراق ، وألذها طعاماً وأحسنها نظاماً ، ماكان صاحبه شامياً أو كان على مذهب أهل الشام . ثم إن خدم المطاعم والقائمين عليها طيّعون أذكياء ، وهم يدركون باللمحة السريعة ، ويفهمون بالإشارة الخفية .

وفي دمشق النعيم المقيم وليست تخلو من ثمر قط لا في الصيف ولا في الشتاء . أما جودة ثمارها فأشهر من أن تذكر ، وفيها من العنب ما يزيد على خمسين نوعاً ، ومن التفاح ما ينيف على الثلاثين ، ومن المشمش تسعة أنواع ، ومن التين قريب من ذلك ، ومن الدراق والكمثرى والتوت الشامي والجوز واللوز ما لا يوجد مثله في غيرها .

وفيها كلية الطب العربية ، ولأساتذتها فضل كبير على ما وضع من المصطلحات العلمية في لغة العرب . وفيها أنشئ أول مجمع علمي عربي ، وفي الشام كثير من الآثار الباقية من القرون الخالية : كالقلعة والسور ، والمدارس ، والمارستانات والمساجد القديمة ، والربط والخانات ، ولكل من ذلك حديث طويل وتاريخ حافل ، ولكن الأدلاء الجاهلين لا يعرفونها ولا يدلون السياح عليها . وفيها مدافن كثيرين من أعلام الإسلام في السياسة والعلم والأدب والتصوف . وفي مكتبتها الظاهرية نوادر المخطوطات ، حتى أنها لتعد أغنى الخزائن الإسلامية بكتب الحديث . وفي المكتبات الخاصة مخطوطات فريدة . ودمشق زاخرة بالعلماء في كل فن وعلم .

---

(١) بصيغة الفاعل ـ كذا يضبطها الفقهاء ـ أي يوسوس بنفسه .

وليس للعروبة مثل دمشق موئلاً وملاذاً ، وليس في المسلمين مثل أهلها تمسكاً بالدين وإقامة لشعائره ، فمساجدها ممتلئة أبداً ، فيها كل شاب متأنق تراه فتحسبه من شرّاب مياه التايمس أو السِّين ، وهو مسلم حقاً ، مؤمن صدقاً ، ناشئ في طاعة الله ؛ ومساجد بلاد العرب إن امتلأت فبالشيوخ والشيب !

والمنكرات في دمشق مقموعة وأهلها الأذلاء . وللعلماء العقلاء المخلصين منزلة عند أهل دمشق ليس لأحد من أبناء الدنيا مثلها . والسفور في نساء الشام قليل نادر ، والاحتشام والستر عام شامل . وأهل الشام كالماء لهم في الرضا رقته وسيلانه ، وفي الغضب شدته وطغيانه ، بل ربما كان لهم من البركان فوراته وثوراته .

☆ ☆ ☆

وبعد فأي مزاياك يا دمشق أذكر ، وفيك الدين وأنت الدنيا ، وعندك الجمال وعندك الجلال ، وأنت ديار المجد وأنت ديار الوجد ، جمعت عظمة الماضي وروعة الحاضر ؟

لا ، ليس هذا الكتاب (صورة كاملة) لدمشق ، ولكنه خطوط فيها ملامح من دمشق .



هـذي دمشق

(كتب إلي صديق كبير وأستاذ جليل ممن عرفت في مصر أن أصف له مدخل دمشق ، وأن أعرفه بمنتزهاتها وآثارها ، وإن ذلك لمطلب على مثلي عسير ، وحمل على قلمي ثقيل ، وإني أحاوله اليوم محاولة ريثما ينهض به من هو أضخم مني في زحمة الأدب منكباً ، وأحد فكراً ، وأمضى قلماً) .

نشرت سنة ١٩٤٦ م

هـذي دمشق يا أيها الأخ السائح ، قد لاحت لك أرباضها ، ودنت رياضها ، أفما تراها وأنت قادم عليها من نحو القبلة[١] ، مع الصباح الأغر كيف نامت من غوطتها على فراش من السندس صنعته يد الله ، وقد توسدت ركبتي قاسيون[٢] ، فكان رأسها في الصالحية ، وقدمها في (القدم)[٣] وقلبها في (الأموي) بيت الله الأطهر ، فانظر أما تراه أول ما يبدو من دمشق للقادم

---

(١) لدمشق أربعة مداخل : مدخل من الشمال يدخل منه القادم من بغداد ومن حمص وحلب فيمر على كروم دوما ، ويجتاز طرف الغوطة ، حتى يلج دمشق من حي النصارى سالكاً على (شارع بغداد) وسيأتي وصفه في فصل (جبل دمشق) ، ومدخل من الغرب يدخل منه القادم من بيروت ومدخلان من الجنوب ، واحد من حوران وواحد من الجولان ومنه يدخل من ينزل في المطار .

(٢) قاسيون جبل دمشق علوه عن وجه البحر (١٢٠٠) متر وعن المدينة نحو (٥٠٠) متر وقد بلغت منازل حي المهاجرين والصالحية ثلثيه علواً .

(٣) القدم قرية على باب دمشق من جهة الميدان ، تبعد عنها مسيرة عشر دقائق فقط : تزعم العامة أن فيها أثر قدم الرسول ﷺ ولا أصل لذلك .

عليهـا ، يطل عليهـا من فوق قبـة النسر التي راعت بجلالها الأولين والآخرين ، ومآذنه الثلاث معجزات الصنعة في تاريخ العمران الإسلامي ، يسبغ على المدينـة جلال القرون الأربعين التي رآها وعـاشهـا ، مـذ كان معبـداً وثنيـاً ، إلى أن صـار منسكاً مسيحياً ، إلى أن استقر مسجـداً إسلاميـاً ، يخرج من منـاراتـه خمس مرات كل يوم النداء الأقدس : (الله أكبر لا إله إلا الله) ، فيردده إخوان لنا في المشرق وإخوان في المغرب ، حتى يفيض طهره على الأرض كلها . ألا تراه يعلو كل عمارة في المدينة على مافيها من عمارات شاهقات ، حتى كأن أعلاهـا إلى جـانبـه الطفل بجنب الرجل الضخم الطوال ؟ فإن كان برج (إفّل) علم بـاريز ، وذلـك التمثـال علم نيويورك ، فعلم دمشق بيت الله العلي ذي الجلال .

لقد دنونا ، هذا المطار إلى يمينك ، وهذه القريـة من ورائـه (داريـا)[1] ، والغوطة الغناء ، جنة الأرض ، مارآها أحد إلا أحس بأنه يرى مـدينـة مسحورة من مدن (ألف ليلة) ، قد تراءت له في غمرة حلم ممتع . لقد اقتربنا منهـا . هـذه (المزة) ضاحية دمشق ، أصح المنازل ، وأبعدها عن العلل ، مسـاكن العرب الغر من سـالف الـدهر ، لقـد جـاوزنـا سهلهـا المشرق ، وجبلهـا المشرف وسـاحتهـا الفيحاء ، وعماراتها البارعات ، وولجنا حمى الغوطـة . هـذه بسـاتينهـا التي تتصل حافلة بالثمار ، مليئة بكل ما يفتن ويفيـد ، مسيرة تسع سـاعـات على المـاشي ومـا ينفك يمشي في ظلال شجرة مثمرة ، أو نبتة مزهرة ، ولو اجتمع على مائـدة واحـدة ماتخرج من الثمار من أنواع المشمش والعنب والتفـاح والكمثرى والخوخ لاجتمع أكثر من ثلاثمئة صحن مافي صحن منها مثل الآخر .

هذه هي الغوطة ، أفما ترى نسـاءهـا يلحن من بعيـد وهن سـاربـات خلال الأشجار ، أو منثورات وسط الحقول بثيابهن التي لا يحببنها ، على سترها وشمولها ،

---

(١) قرية من أكبر قرى الغوطة وهي قديمة ذكرها ياقوت ، وهي مشهورة بنوع من العنب الفاخر لا يثمر إلا فيها .

إلا زاهيـة تضحـك فيهـا الألوان ، فتحسبهن الـزهر ، وتظن الربيـع قـد جـاء في كانون[1] والأرض مفروشة ببسط نسجت بخيوط الـذهب ، من صفرة الأوراق التي بعثرهـا وتركهـا الخريف فكانت كنثـار الـدنـانير ، على بسـاط من السنـدس ، في عرس أمير ، والبقر الفاقع الصفرة الصافي اللون ، تماثيل في متحف الطبيعـة صبت من خـالص العسجـد ، والشتـاء إذ حل فخلعت فيـه الأشجـار ثيـابهـا ، على حين يتـدثر النـاس بـالصوف ، فكأنمـا هن الغيـد الفـواتن تَعرّين على الشـط ، ليضنين الشباب لوعة وشوقاً[2] :

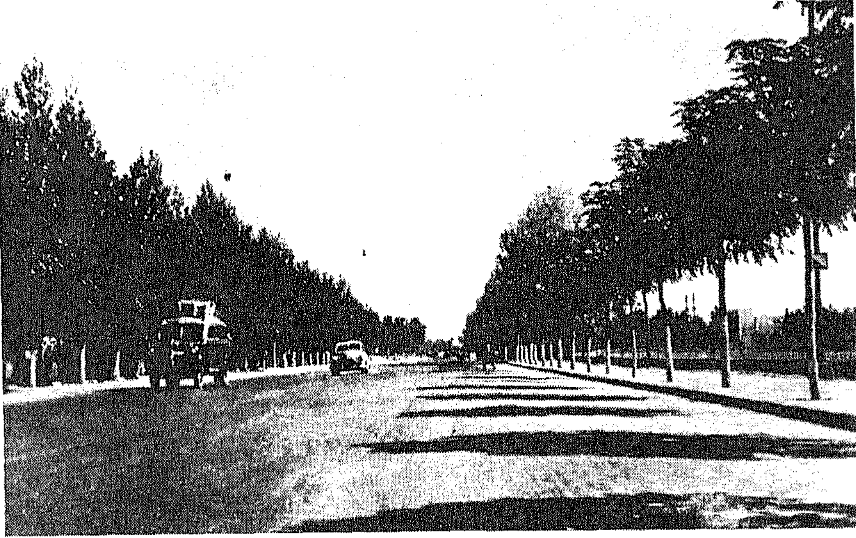
ومـــا ينتحين الشـــط يبغين برده　　ولكن ليقتلن البريء ـ المغفـــــلا

فهذا الحور لم يبق منه إلا عيـدان ، فكأن الحور فتيـة أذاب جسومهم الحب ، فأضحوا من جَواه جلـداً على عظم ، والمشمشـات كأنهن عـذارى هجرهن الأحبـة ، بعـدمـا قطفوا (زهراتهن) ، فَـأبْنَ بلوْعَـة ليست تنفع وحسرة ، ورحن إلى خزي لا يريم وإلى ألم ؛ والجوز العاري على جلالـه ، ملـك عزل واستلب منـه تـاجـه ، ولكنـه كان عظيمـاً في محنتـه كما كان عظيمـاً في نعمتـه . أمـا الزيتون فلا يرى إلا لابساً ثيابه التي لا ينضيها ولا تبلى عليه ، ثـابتـاً على حـالـه ، لا يحس بـالغير ولا تستخفـه الأحـداث ، فلا يضحـك بـالزهر إن أقبـل الربيـع ، ولا يبكي إذا جـاء الشتاء فهو الفيلسوف الساخر بالحياة ، أفراحها وأتراحها ، الـذي لا يبـالي نعمهـا ولا نقمهـا ، والسواقي وهن جوار من الشرق إلى الغرب ، ومن الغرب إلى الشرق ، ومن كل جهة إلى أختها ؛ ساقية تجري عميقـة بين الأعشـاب ، لا يوصل إليهـا ولا ينـال مـاؤهـا ، وأخرى ظـاهرة مكشوفـة ، وواحـدة تتحـدر تحـدراً ولهـا صخب وهدير ، وثانية تسير صامتة في أصول الأشجار وصـافيـة نقيـة ، وعكرة خبيثـة ، وسالكة طريقها قانعة بمجراها ، وكاسرة حدودها عادية على غيرهـا . فكأن سواقي

(١) كانون الأول عندنا (ديسمبر) في لغة الإنكليز !

(٢) ثم ليجعلن هذه الأجسام حطباً لنار جهنم جزاء هذا الفسق وهذا الفجور .

الغوطة صورة لنا في حياتنا نحن الناس ، كل يعمل على شاكلته ، وكل ميسر لما خلق له ، مُوَلٍّ وجهتَه ، ساع إلى غايته ، والوجهات متعارضات والغايات مختلفات ، ولكن كل ساقية تعرف طريقها ، والناس يهبطون إلى حضيض الشهوات والمعاصي على أهون سبيل ، ولكنهم يلقون في التسامي إلى معالي الأمور عنتاً وأيناً . وكذلك السواقي تتحدر بلا سَوق ولا تعب ، ولكنها لا تعلو إلا أن تضخّها بمضخات وترفعها بآلات ، وهذا عميق النفس لا تدرك قرارته ولا تعرف حقيقته ، وهذا واضح بين ، ظاهره كباطنه ، وهذا جياش صخاب ، وهذا صامت سكوت ، ونقي الطوية وخبيث الداخل ، ومنصف وظالم ، وكبير وصغير ، وكل يستمد من غيره ويمد سواه ، وكذلك السواقي في الغوطة .



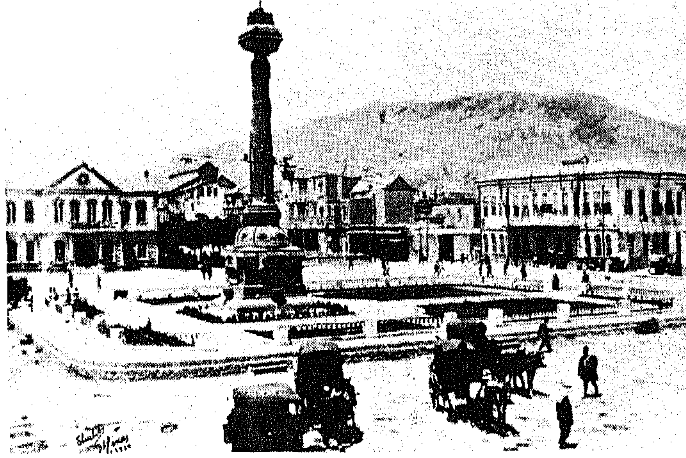
هذه هي الغوطة إن يفتنك جمالها وبهاؤها ، فقد فتنت من قبلك ملوكاً وقواداً وأدباء وعلماء ، وأنطقت بالشعر ناساً ما كانوا من قبل شعراء ، وأشاعت في الناس فرحة لا تنقضي ، وما فقدت على الأيام فتنتها ، ولا شاخت على طول المدى ، بل ازدادت شباباً وفتوناً وحسناً . هذه هي الغوطة ، رأيت جانباً منها في الشتاء ، ولو رأيتها وهي مياسة في حلل الزهر تختال في أفراح الربيع ، عرس الدهر ، تملأ الدنيا بالعطر والسحر ، وتقرأ على القلوب أبلغ الشعر ، لرأيت عجباً ، ما يبلغ وصف حقيقته بيان !



لقد تركنا هذا الطريق القديم الذي يمر على ثكنات الجند ومنازل الجيش ، وملنا من هذه الجادة المحدثة إلى الشارع العظيم لندخل دمشق من أفخم مداخلها . هذا هو بردى يا أيها الأخ ! وهذا ؟ ... أترى هذه العظمة وهذا الجلال ؛ أتسأل ما هذا الوادي ، وما هذه الأنهار تجري في سرة الجبل وعلى السفح ، سبعة بعضها فوق بعض كعقود اللؤلؤ في عنق كأنه العاج ، والشلالات تهبط من أعاليها إلى أسافلها ؟ هذا يا سيدي معبد الجمال ، هذا دير الحب ، هذا منسك القلوب ، هذه الربوة ... لا يا أيها الأخ ، إن من الإلحاد في شرعة الجمال أن نصف الربوة ونحن نمر بها مرور الكرام باللغو ، إن لها حديثها وستسمعه إن شاء الله . لقد قلت عنها كلاماً كثيراً ، ولكن مكان القول فيها ذو سعة ، وسأقول عنها إن أنا وفقت كلاماً أكثر ، على أنه لا يغني فيها كلام عن شهود ، ولا يجزئ بيان عن عيان .



وصلنا يا أيها الأخ ، هذا ميدان دمشق (المرجة) وهذا النصب الفخم في وسطه المتوج بتمثال مسجد السراي في (اسطامبول[1]) ، هو نصب التذكار بمد الأسلاك البرقية إلى دمشق[2] وهذا القصر الصخري الهائل ، سراي أحمد عزت باشا ، وهذه دار البلدية ، وهذا البناء الرفيع الذرى نُزُل أمية ، وهذه الشوارع الثمانية المفضية إلى الميدان ، بسياراتها وتراماتها ، طرق أحياء دمشق . أتعجب من الحانات وهذه الملهيات ومن كثرة السينمات ؟ هذه يا صاحبي (دمشق الجديدة) ، تلقى فيها ماتلقى مثله في أي مدينة كبيرة : خير وشر ، وعلم وجهل ، وتقى وفجور ، وحجاب وسفور ، حياة كالبحر فيه اللؤلؤ وفيه الحصى ، وفيه الحياة وفيه الموت . هذي دمشق التي مزقت ثوبها لتلبس ثوباً أوربياً ، فلم تجده على مقياسها فبقيت عريانة إلا من خرق وأسمال . هذه هي القبّرة التي أراد لها حمقها أن تقلد الغراب فنسيت على جمالها[3] مشيتها ، ولم تتعلم على قبحها خطوة الغراب . انزل في نزل أمية ، أو في فندق الشرق (أوريان



(١) سماها محمد الفاتح (اسلامبول) أي بلد الإسلام .

(٢) الشائع في العامة أنه تذكار مد سكة الحديد إلى الحجاز .

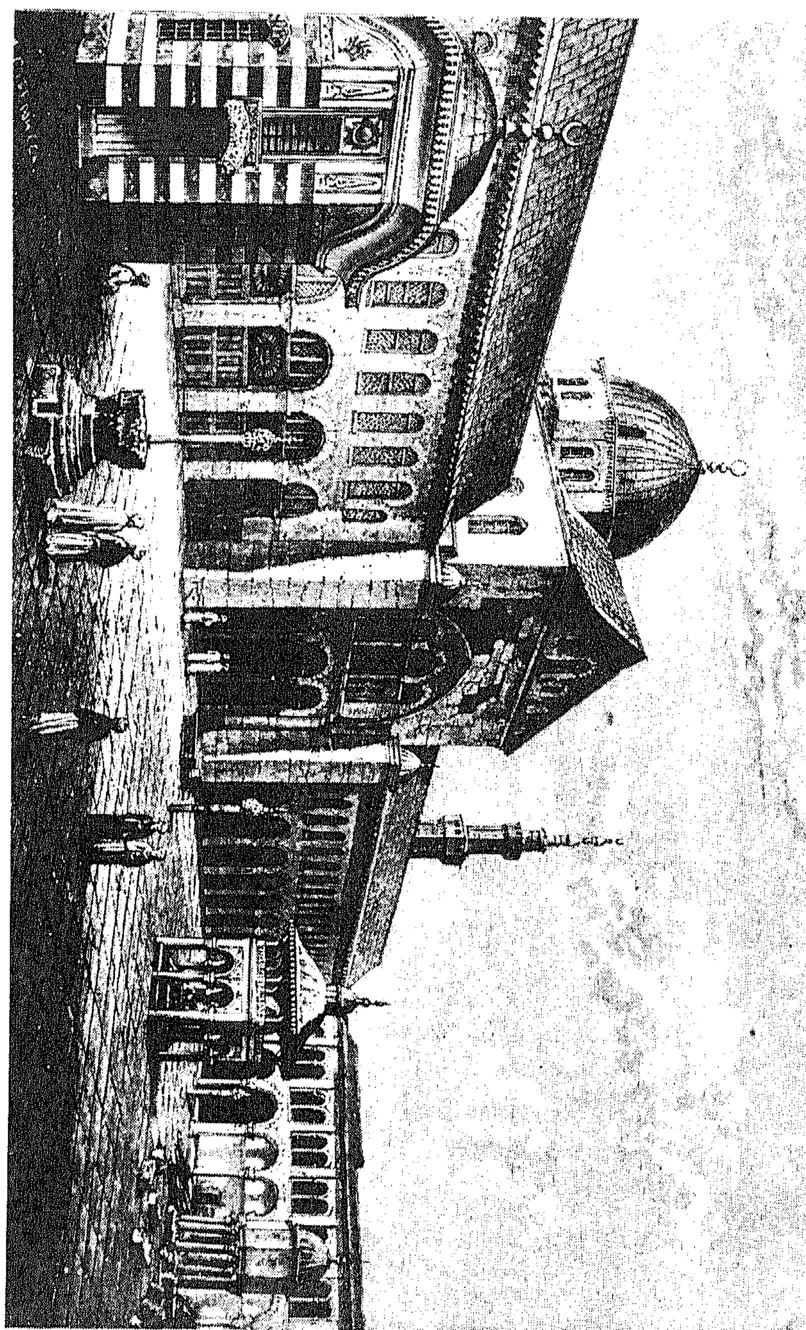
(٣) على جمالها أي جمال المشية ، ويجوز أن يعاد الضمير إلى متأخر في اللفظ إن كان متقدماً في الرتبة .

بالاس) الضخم القائم هنـاك ، بحيث يشرف على بردى وواديـه ، والشرف الأعلى ومغانيه ، وقـاسيون وقصور المهـاجرين ... تحس أنـك في (شبرد) القـاهرة ، أو (الكونتننتال) ـ أعني أنك في أوربة ؛ فالأثاث والريـاش ، والطعـام والشراب ، والـزي واللبـاس ، والسماع والغنـاء ، واللغـة واللســان ، كل ذلــك أوربي أوربي أوربي !

ولو أنك عرفت هذه (المرجة) في عصورهـا الخوالي وهـذين الشرفين الأعلى والأدنى ، ومـا كان فيهما من مـدارس ومسـاجـد وزوايـا وتكايـا ، ومـا قـام الآن مقامها ، وأخذ مكانها . ولكني لن أسوق لـك المزعجـات وأنت قـادم على البلـد ، فاقرأ إن شئت ابن عساكر ، والمحاسن للبدري ورحلة ابن بطوطة ، وما أظنك إلا قد قرأتها كلها !

هـذه دمشق الجـديـدة ، أمـا دمشق العربيـة المسلمـة ، بلـدك وبلـد خلائف الأرض ، من أبنـاء عبـد شمس ، من إذا قـالوا لبت الـدنيـا ، وإن مـالـوا مـالت الأرض ، وإن حكموا أطـاع الزمـان ، من كانت دولتهم (تفصّل) تسع عشرة من دول هـذه الأيـام ، من كانت رايـاتهم تخفـق على بطـاح فرنسـا وسهـول الهنـد ومابينهما ، وكانت قصورهم تتيه على النجوم ، وكانت أبوابهم تقف عليهـا الملوك . أمـا دمشق معـاويـة والوليـد فليست هنـا ، إنهـا مختبئـة هنـاك في دروب ضيقـة وحارات حول المسجد الأطهر ، هناك المجد والعلم والتقى وبـارع الخلال ، فـامش إليهـا وادخل دورهـا ، وجـالس أهلهـا ، تقرأ تـاريخ المجـد في صفحـات من دور ووجوه وعادات ، وتر بقايا الحضارات من لدن نوح قد استقرت فيهـا ، ففي كل بقعة منها تاريخ ، وكل حجر منها يتلو من سور الجلال آيات .

فإذا أردت أن تعرفها وتصل إليها ، فـاخرج من نزل أميـة ، ومل قليلاً تجـد أمامـك جـامع الأمير (يلبغـا) الـذي سرقوا نصفـه فجعلوه مـدرسـة للصبيـان ، وتركوا منارته قائمة في المدرسة ، تعلن لكل ذي عينين شكواها وتذيع خبر بلواهـا



فلا تقف عليه ، وخذ إلى يمينك ، إلى جادة الفنادق ، (الجوزة الحدباء) ، حتى تبلغ سوق صاروجا[١] الذي كان حي الباشوات من الأتراك والمجددين ، فصار الآن حي التجار المحافظين ، وزر في طريقك جامع الورد[٢] ثم امشِ إلى العقيبة ، منزل الإمام الأوزاعي[٣] وادخل جامعها الأنور المبارك الذي لا يخلو من قائم لله بحجة ، جامع التوبة[٤] ثم اسلك طريق العمارة ، وجز بزقاق النقيب ، وعرج على منازل علماء الأمس[٥] ، فقد كانت هذه المنازل مدارس ، وكانت جامعات ، وكانت منائر هدى للناس ، وكانت هي دعائم نهضتنا ثم ادخل الجامع الأموي ، وامكث فيه وسائله عن الماضي واستنطقه ، وطر بروحك في سمائه ، واسم بها إلى عليائه ، ثم عد إلي أحدثك إن شاء الله حديثه ، وإن حديثه لطويل[٦] .

ثم جل في القيمرية ، ولج تلك الدور ، وشاهد تلك القاعات والأبهاء ، وهذه الزخارف والنقوش ، والبرك والنوافير ، فعنها يا سيدي أخذ الأندلسيون

---

(١) نسبة إلى صاروجا ، الأمير صارم الدين من أمراء المماليك مات سنة ٨٤٣ هـ ، والعامة تسميه سوق ساروجا .

(٢) ويقوم عليه العلماء آل عابدين من سلالة صاحب الحاشية .

(٣) وكانت يومئذ قرية في ظاهر دمشق .

(٤) سمي بذلك لأنه كان خاناً ترتكب فيه أنواع الموبقات ، فجعله أمير ـ لا يحضرني الآن اسمه وتاريخه ـ مسجداً ، وهو أحد جوامع الأحياء في دمشق ، ومنها جامع السادات في حي الأقصاب ، ويلبغا في سوق الخيل ، والسنانية في باب الجابية ، نسبة إلى المهندس التركي المشهور صاحب المآثر العمرانية سنان باشا ، وقد وقف عليه أوقافاً جليلة ، وجامع باب المصلى ، وسيدي صهيب ، وجامع منجك والدقاق في الميدان وفيه (بسيط) نادر من عمل جدي العالم الفلكي محمد الطنطاوي المصري الأزهري الذي نزح من طنطا إلى دمشق وتوفي سنة ١٣٠٣ هـ وجامع محيي الدين بن عربي .

(٥) كالأمير العالم عبد القادر الجزائري والمشايخ محمود الحمزاوي المفتي ومحمد الطنطاوي وسليم العطار وبكري العطار وابن عابدين صاحب التكملة والكزبري والحايك والعمادي والخاني والطيبي والأسطواني والخطيب والمنيني وغيرهم رحمهم الله أجمعين .

(٦) قدمت إلى المطبعة كتاب (الجامع الأموي) وأظنه يصدر قريباً . [صدر ونفد ـ الناشر]

هندسة هاتيك القصور ، ومر بهذا الزقاق الذي تباع فيه القباقيب ، ولا تحقره لضيقه وفقره ، ثم انزل إلى تلك الحارة المعتمة القذرة فاقرع باب مصبغة هناك ، فإذا فتحوا لك فاهبط درجها ، ولا تفزعك رطوبتها وظلمتها ، ثم قف خاشعاً متذكراً معتبراً ؛ فإن في مكان هذه المصبغة التي يسمونها (مصبغة الخضراء) كان قصر الخلفاء من بني أمية .

فإذا خرجت منها فاسأل عن زاوية هناك ، فإن فيها قبر معاوية الصغير (ابن يزيد) ، ثم اذهب إلى السميساطية تلك المدرسة المحدثة البناء ، العامرة ، فقف عليها فقد كانت منزل خامس الخلفاء الراشدين ، عمر بن عبد العزيز ، ثم أم المعاهد في جوارها : الجقمقية وتربة بطل الدنيا صلاح الدين ، فقم على قبره ساعة ، وترحم عليه واحمد الله ، على أن خزي ذلك الطاغية (غورو) وذلّه[1] والظاهرية[2] دار الكتب ، والعادلية[3] مثوى المجمع العلمي العربي ثم اسلك على باب البريد ، ومر بخرائب (المرادية) التي كانت إلى العهد القريب مدرسة عامرة ، حتى تزور دار الحديث الأشرفية ، التي كان فيها البدر الحسني بقية السلف ، وزر المارستان النوري ، الذي كان مستشفى كأكبر ما يكون مستشفى في

(١) لما دخل عدو الله غورو مدفن السلطان ، أعلن الحرب على ميت ، فاستل سيفه وقال : الآن انتهت الحروب الصليبية !

(٢) والذي يعود إليه الفضل في إنشاء المكتبة الظاهرية ، إذ جمع فيها الكتب التي كانت متفرقة في المساجد والزوايا ، هو العلامة الشيخ طاهر الجزائري أحد نوادر الدنيا علماً وعملاً وصراحة وتسليكاً ، وشرف نفس وجرأة وسعياً للمصلحة العامة ، وبفضله أنشئت المدارس الابتدائية في دمشق .

(٣) نسبة للملك العادل محمد بن أيوب أخي السلطان صلاح الدين انتهى إليه ملك مصر والشام واليمن وأرمينية وكان ملكاً عظيماً توفي سنة ٦١٥ هـ ودفن في مدرسته ، التي اتخذها المجمع العلمي العربي في دمشق داراً له ، وكان يسكنها القاضي المؤرخ الأديب ابن خلكان ، أما الظاهرية فنسبتها إلى الملك الظاهر بيبرس القائد المظفر صاحب الوقائع الهائلة ، وله تاريخ طويل ومآثر مشهورة ، توفي سنة ٦٧٦ هـ ودفن في هذه المدرسة وضريحه في قاعة من أنفس القاعات الباقية في دمشق .

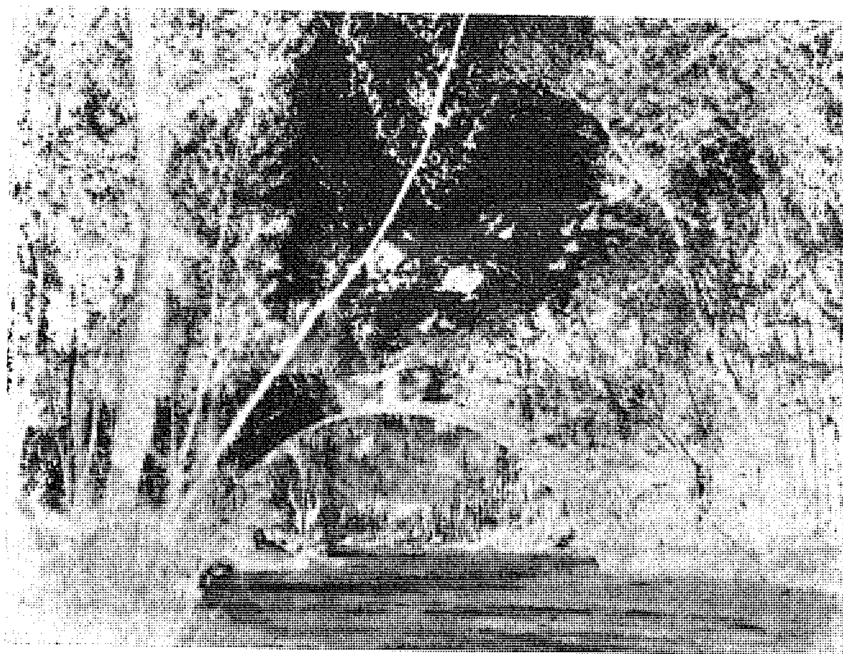
هـذه الأيـام وكان مـدرسـة للطب ، ثم أم قبر الملـك العظيم صـاحب هـذه المـآثر نور الدين القائد الظافر والملك العادل والحـاكم الكامل ، ولقـد كانت تربتـه منزل هشام بن عبد الملك ، ثم ادخل القلعة ، وشاهد السور والأبواب .

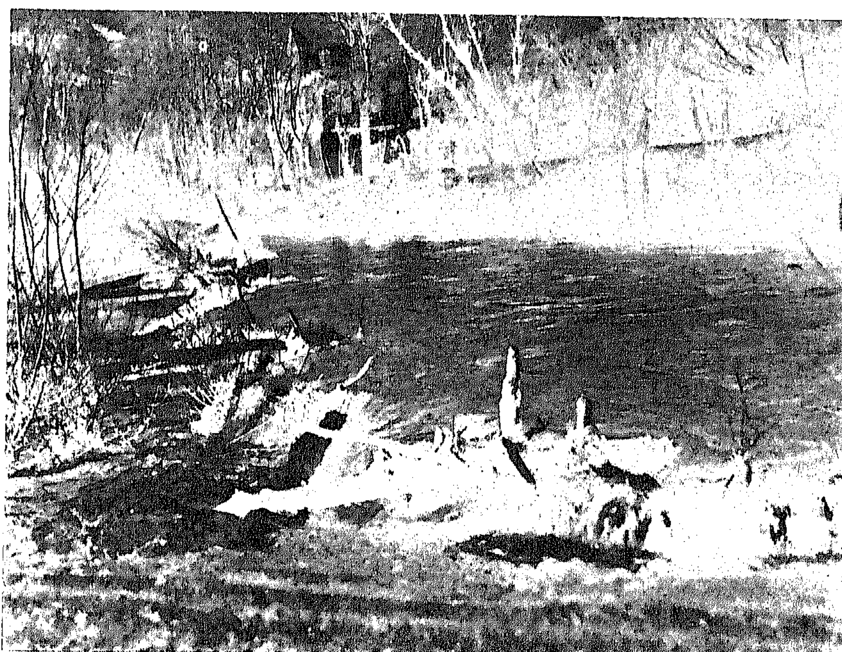
هذي دمشق أقدم مـدن الأرض[1] وأجملهـا ، هواؤهـا أطيب هواء ، ومـاؤهـا أعذب ماء ، وطعامها أمرأ طعام ، ومنظرهـا أبهى منظر ، ومخبرهـا أحسن مخبر ، ولسـانهـا أفصح لسـان ، وسكانهـا من أكرم السكان ، فيهـا العلم والأدب ، والتقى والصلاح ، والحب فيها واللهو ، وفيها الفنون والجمال .

هذي دمشق كانت لب العربية ، وبقيت لب العربية ، وستطلع على العصور القوادم وهي للعربية لب وقلب وفؤاد ، لهـا لين المـاء الـذي يضحـك بـه بردى ، وشدة الصخر الذي يشمخ بـه قـاسيون ، وصراحـة السهل الـذي تزدهي بـه المزة ، وكرم الأرض التي تعطي ـ في الغوطة ـ أكلها أربع مرات في العام .

لها لين بردى ، ولكن بردى إذا ضويق بالسدود ، علا وفاض واجتـاح البلاد والعباد ، ودمر كل شيء يقف في طريقه ، ويقطعـه عن مراده ، فقل للغـافلين : « لا يغركم من بردى لينه وابتسامه ، فإنـه سرعـان مـايعبس ويثور فـاتقوا غضبـة الحليم ! » .

(١) أعني المدن العامرة ، فأروني مدينة عامرة أقدم منها ؟





نهر دمشق

نشرت سنة ١٩٣٣ م

(بردى) سطر من الحكمة الإلّهية ، خطته يد الله على صفحة هذا الكون ، ليقرأ فيه الناس ببصائرهم لا بأبصارهم فلسفة الحياة والموت ، وروعة الماضي والمستقبل ، واختصت به الأمةَ العربية ، فجمعت فيه تاريخها الجليل ببلاغة علوية متفجرة .

والله الذي جعل الآية المعجزة في القرآن ، هو الذي جعلها في الأكوان . والله الذي أعجز ملوك القول ، وأمراء البلاغة ، بسُوَر من آيات وكلمات وحروف ، هو الذي أعجز قادة العقل ، وأئمة الفلسفة ، بسُوَر من بحار وأنهار وكهوف .

وما (بردى) إلا سورة من قرآن الكون ، وليس إعجازه في أنه يجري ؛ ولكن إعجازه في أنه ينطق ، وأن في كل شبر منه تاريخ حقبة من العصور ، وتحت كل شبر أنقاض أمّة من الأمم ، أمة ولدت في حجره ، ورضعت من لبانه ، وحبَت بين يديه ، ثم قويت واشتدت ، وبنت فأعْلَت ، وفتحت فأوغلت ، ثم داخلها الغرور ، وحسبت أنها شاركت الله في ملكه ، فظلمت وعَتَتْ واستكبرت ، فبعث الله عليها نسمة واحدة من وادي العدم ، فإذا هذه العظمة وهذا الجبروت ذكرى ضئيلة في نفس بردى ، وأنقاض هيّنة في أعماقه ، وصفحة أو صفحتان في كتاب التاريخ ، وإذا بأمة أخرى تخلفها في أرضها ، وترثها مالها ، ثم يكون سبيلُها سبيلَها : ولقد قام الفينيقيون على أنقاض الحثيين ، والكنعانيون بعد الفنيقيين ، والفرس بعد الكنعانيين ، واليونان بعد الفارسيين ، والروم بعد

اليونانيين ، والغساسنة بعد الرومانيين ، والمسلمون بعد الغسّانيين ـ ثم قام العباسيون على أثر الأمويين ، ثم قام صلاح الدين ، ثم جاء الترك بعد السلجوقيين ـ ثم جاء فيصل بن الحسين ، ثم جاءت جيوش الفرنسيين[1] .

هكذا يدور الفلك في السماء ، ويدور السلطان في الأرض ، فينشأ من القبر الحياة ، ويغطي على الحياة القبر ، والسلسلة لا تنتهي ، والناس لا يعتبرون ، و(بردى) يبتسم ساخراً من غرور الإنسان ، ضاحكاً من جهالته ، يحسب نفسه شيئاً ، فيصارع الكون ، ويتطاول بعقله إلى الله وما هو من الكون إلا ذرّة من الرمل ضائعة في الصحراء ، وما عمره إلا ثانية واحدة من عمر (بردى) .



(بردى) وهو يجري على الأرض رمز لتاريخ الأمة العربية وهو يجري في الزمان ، ففي كل قسم من بردى فصل من التاريخ :

يخرج (بردى) من بقعة في (الزبداني) منعزلة صعبة ، لا يبلغها إلا من كان من أبنائها ، عارفاً بداخلها ومخارجها ، كما خرج العرب من هذه (الجزيرة) الصعبة المنعزلة ، التي لم تكن إلا لأبنائها ، والتي ردّت عنها الفاتحين كافة ، وجعلت رمالها قبراً لكل من يجرؤ منهم على وطئها ، على أنه لم يتجرأ عليها إلاّ كسرى فوصل جيشه إلى (ذي قار) ، فابتلعت الجزيرة هذا الجيش وهي تهتف لمحمد ، ثم لم يقنعها هذا الثأر ، فابتلعت دولته كلها في (القادسية) تحت راية محمد . وقالت للعالم : هذا جزاء من يطأ الجزيرة !

ويسير (بردى) في غور عميق لا يخرج إلى هذه الجنان الجميلة الفتانة ، التي قامت على مقربة منه ، بل يسلك قرارة الوادي تلتطم أمواهه وتصطدم : كما كان العرب في جاهليتهم يصطدمون ويقتتلون ، ويشتغلون بأنفسهم عن العالم ، فلم يخرجوا إلى

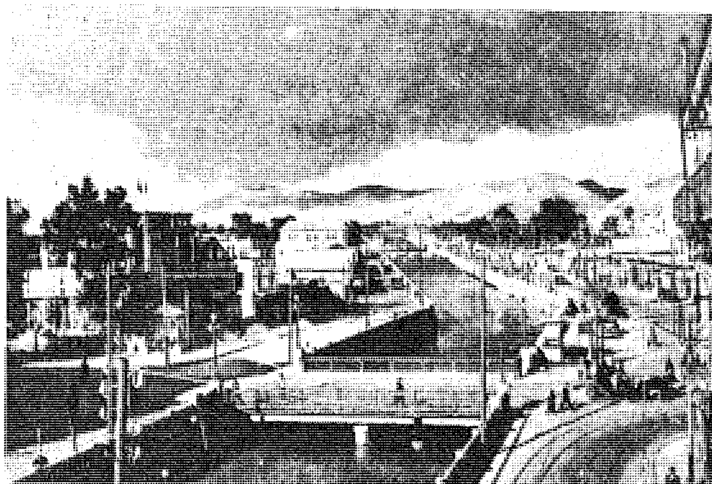
---

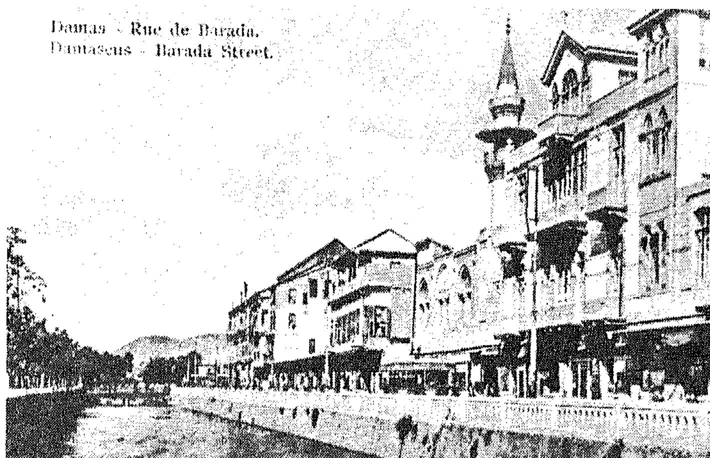
(١) ثم أخرج الله الفرنسيين وقطع دابرهم .

الدنيا ، ولم تخضع لجزيرتهم جنان الشام ، ولا سهول مصر ، ولا سواد العراق .

ثم يبلغ بردى (الفيجة) فتصب فيه أمواهها العذبة الصافية الزاخرة ، فلا تخالطه ولا يخالطها ، ويسير النهر خمسين متراً ، ومن إحدى جهتيه (بردى) القليل العكر ، ومن الأخرى (الفيجة) الكثيرة العذبة ، ثم يختلطان ، فتضيع قلته وكدورته ، في كثرتها وصفائها ؛ ويعدو (بردى) قوياً عذباً زاخراً ، نحو أرض الورود والثمار ، كما صبت عَلى الديانة الجاهلية ، مبادىءُ الإسلام السامية ، فتجافى العرب عنها ، وأبوا أن يتبعوها ، وكادوا لأصحابها ، حتى غدت الجزيرة كبردى ، فيها المسلمون الموحدون المتحدون ، والجاهليون المشركون المختلفون ، ثم مكن الله لمحمد ، فخضعت له الجزيرة التي لم تخضع قبله لمخلوق ، واجتمعت كلها تحت رايته ، ولم تجتمع قبل تحت راية واحدة ، فقادها إلى الشام والعراق ، إلى أرض النخيل والأعناب .

ويبلغ بردى (بسيمة) ويبلغ (الجديدة) فيسير بين بسيمة والجديدة في أجمل البقاع على وجه الأرض ، ويسقي هذه الخمائل فيكون شكرها إيّاه ، ألوان الورد ، وأغصان الأشجار التي تتدلى فوقه ، وتلمس خدّه لمساً رفيقاً ، وتقبل جبينه قبلة طاهرة ، وهو يلين تارة فترى حصباءه من صفائه ، ويشتد أخرى فيرغي ويزبد ، ويكون له منظر مرعب ولكنه جميل ، مرهوب ولكنه محبوب ؛ كما كانت الأمة العربية بعد أن بسطت سلطانها على العالم القديم كلّه ، محبوبةً مرهوبة في آن ، يفزع أعداؤها من هيبتها ، ولكنهم يحبون عدلها ، وينتفعون بحضارتها ، أغاثت بالعدل بقاع الأرض ، فكان شكرانها إيّاها هذه الأموال التي فاضت بها خزائنها ، وهذا النعيم الذي تفيأ ظلاله أبناؤها ، وكانت تستقيم لها الأمور فتلين وتدع هذه الرقعة البسيطة من الأرض جنّة يسعد بها أهلها ويسعد بأهلها أهل الأرض جميعاً ، وكانت تستغضب ، فإذا غضبت غضب لها الدهر ، وإذا سارت إلى عدوها سار في ركابها الموت والدمار أنى سارت . كانت تحمل في




Damas - Rue de Barada.
Damascus - Barada Street.

يمناها السلام والسعادة لمن أراد السلام ، وفي يسراها الموت والشقاء لمن ناصبها الحرب ، كما يحمل بردى بين (بسيمة والجديدة) الغيث والثمرات ، والطوفان والغرق .

ويبلغ بردى (الربوة) ويمشي حيال النيربين ، ذلك المغنى الذي بني من الشعر ، ثم استحال إلى مقاهٍ من عيدانٍ تقوم على الخمر والقمر والعهر ، وينقسم بردى إلى سبعة أقسام قد نثرت نثراً بين عدوتي الوادي : يزيد وتورا وبردى وباناس وقنوات والديراني والقناة ، منها القوي الممتلىء ، ومنها الضعيف القليل كما انقسمت الأمة العربية إلى طوائف وحكومات ، منها القوي المتين ، كحكومة صلاح الدّين التي ردّت (على صغرها) أوربة كلها يسوقها الجهل والتعصب ، وانتزعت في (حطين) الفريسة من (قلب الأسد) ، وحكومة سيف الدولة[1] التي هزت في (الحدث) حكومة الرومان هزاً ، ومنها الضعيف المستكين . وقد أزهرت الحضارة في هذا العهد وأثمرت ، كما أزهرت الأشجار في (الربوة) وأثمرت .

ثم يدخل بردى (دمشق) ، فلا يصفّق بالرحيق السلسل ، ولا يتمايل على الورود والرياحين ، بل يصفق بالأوحال والحشائش ويميل على الأقذار والأوساخ ، ويشح ماؤه وينضب ، ثم يضيع ويضمحل ، كما ضاعت عزّة العرب واضمحلت .

ثم يخرج إلى (الغوطة) فإذا نشق نسيمها ، عاودته الحياة ونشأت في مجراه الجاف الصلب ، عيون وينابيع كان أصلها منه ثم عادت إليه ، فإذا بلغ (جسر الغيضة) عاد قوياً زاخراً عذباً ـ كما عادت الأمة العربية اليوم إلى الحياة ، ورفعت في الشام ومصر والعراق ، صروحاً جديدة ، لن تلبث إلا قليلاً ، حتى تكون خالصة لأصحابها من دون الناس أجمعين[2] .



(١) كان سيف الدولة من أظلم الملوك وأطغاهم ، ولكن الناس نسوا حقائق التاريخ عنه ، وحفظوا أكاذيب المتنبي فيه ، وكان له مع ذلك مفاخر ومآثر في جهاد الروم .

(٢) كتب هذا الكلام من أكثر من ربع قرن وقد كان ذلك بحمد الله الآن .

وبعد ، فهل أحزنك يا بردى أنك اليوم ضائع في أهلك ، ترى من فوقك عَلم الاستعمار ، وصولة المستشار ، لا ترى حولك عزة العروبة ولا جلال الإسلام ؟

لا . لا تحزن يا بردى ، فما أنت وحدك المضاع ، إن هنا أمّة بقضّها وقضيضها ، هي مثلك مضاعة ، وهي مثلك بنت المجد والسؤدد .

لا تحزن يا بردى ! فلقد عشت حيناً من الدهر ، وأنت تسقي النيل والفرات وسيحون والوادي الكبير ... أفيضرّك وأنت من لدات الدهر ، أن تذل ويذل أهلك أيّاماً .

لا تحزن يا بردى ، بل اصبر ، حتى إذا أعجزك الصبر فثر بأمواهك وليضطرم موجك ، حتى تغسل عن قومك عار الذل والخنوع للمستعمرين من الفرنسيين ، إنه لا يغسله إلا ثورتك ، هذه سنة الحياة يا بردى ، لا بالحق ولكن بالقوّة . أفلم تتعلم إلى اليوم سنة الحياة ؟

لقد غرّ المستعمرين منك لينك ، فأرهم شدّتك ، إن الماء على لينه يجرف جبلاً على جبروته وكبريائه ، ولقد ثرت مرة ، فبلغ رشاشك (بواتيه) من هنا ، و (حيدر آباد) من هناك ! فهل استنفدت تلك المرة قوّتك كلها ؟ أما فيك بقيّة من الشباب ؟ أتعبت إذ تجري هذه الملايين من السنين ؟ إنها فترة صغيرة من عمرك ، فعلام الونى ؟ إنك لا تزال شاباً ، ولم تنس بعد جيش خالد ولا موكب الوليد . لقد كان ذلك أمس ، وسيكون مثله في غد .

فاصبر ولنصبر يا بردى ! إن الصبر مفتاح الفرج يا بردى !

☆ ☆ ☆

الجادّة الخامسة في دمشق

نشرت سنة ١٩٣٩ م

... وكيف لي بتصوير (الجادة الخامسة) للقراء وهم منتشرون في أقطار الأرض كلها ؟ وكيف لي بإقناعهم ، ولكل منهم بلده ، وكلّ ببلده فخور ! أن الشام درّة تاج الكون ، وأنها بيت القصيد في (معلّقة) الوجود ، وأنها اللذة الكبرى مجسمة ، وأنها العاطفة السامية ، والحب مصوّراً هضاباً وصخوراً ومروجاً وبساتين . وأن (الجادة الخامسة) درة دمشق ، وبيت قصيدها ، وأن الذي تشرف عليه منظر أقلّ ما يقوله الصادق فيه ، وأبعده عن المبالغة ، وألصقه بالحق الصراح أنه أجمل منظر على ظهر الأرض ، وأن الله حين وزع الجمال عَلى البقاع ، فخص كل واحد منها ، بنوع واحد منه ، جمعه كله لدمشق ، وعرضه عرضاً دائماً لأنظار أهل (الجادة الخامسة) .

ولقد كنت في البادية منذ أسبوع آيباً إلى دمشق ، أحدق في الأفق علّي أرى خيال دمشق : بلد الحب ، بلد اللطف ، بلد الكرم ، بلد الجمال ، فلا أرى إلا الصحراء بوجهها الكالح الكئيب الصامت الرهيب ، فأفر من مرآها وأغمض عنها عيني ، أحاول أن أختلس من الزمان إغفاءة ، فأقطع هذا الطريقَ المضني على مطية الكرى ، فلا أرى في منامي إلا طيف دمشق البلد الحبيب ، ولا أكاد أستمتع به حتى تقصيه عني سيارة (نيرن) بهديرها الذي يطرد الأحلام ، ودويها الذي يطيّر شياطين الشعر ، وثقلها ورزانتها التي تشبه أحلام قوم الفرزدق ، ولبثت على ذلك حتى جاوزنا (الضمير) ، واستقبلنا دمشق من طريق حمص ،

وكنت في شبه غفوة ، فما أحسست إلا إخواناً لنا من أهل بغداد ، كانوا معنا في السيارة ، ينبهونني ليسألوني ، فانتبهت ، فإذا أنا أرى حولي طلائع الخضرة تمتد إلى السفوح البعيدة ، فقالوا : أهذه هي (الغوطة) ؟ فضحكت وقلت : هذه سهول لها نظير في كل أرض ، فكيف تكون هي الغوطة التي ليس لها في الأرض نظير ؟ انتظروا تروا ، وسرنا خلال السهول ننعم فيها النظر ، فنرى من جمالها كل لحظة مالم نكن رأينا ، حتى بدت أوائل الكروم ، كروم (دوما) ، منذا الذي لم يسمع بها ؟ تلك التي طارت شهرتها في الآفاق ، فأسكرت بمشهدها العشاق وذوي الأذواق ، كما أسكرت برحيقها من كان من أهل الرحيق . فقالوا : هذه هي الغوطة ؟ قلت : لا ؛ بل هذه كرومها ، فانتظروا الغوطة التي فتنت أجدادكم من قبلكم ، وفتنت من قبلهم الروم والفرس ، وتفتن كل ذي لبّ إلى يوم القيامة ! . وسرنا خلال (الكروم) ، وهي تمتد عن أيماننا إلى حيث لا يبلغ البصر ، و (المناظر)[1] قائمة على العيدان الرفيعة ، منثورة في الأرض ، ضاربة في السماء ، لا يحصيها العدّ ، كأنها أعشاش العاشقين ، أو منارات يؤذن فيها دعاة الغرام ، تبعث في النفس ذكريات الحب الدفين ـ وفي كل نفس إنسان منه ذكريات ـ ، فتعيد الحب حياً . وسرنا خلالها حتى بلغنا (الغوطة) ، فسلكنا جانباً منها يحاذي دوما وحرستا . فقلت : هذه هي الغوطة ! وسكتّ فلم أعرفها لهم ، ولم أقرظها ، بل تركتها تقرظ نفسها ، ففعلتْ وأربتْ على ما كان في الخيال منها ، فذهب الإعجاب بالقوم كل مذهب ، ونال من نفوسهم كل منال ، فسكت اللسان ، ونطق القلب ، وقالت العينان ، وشحّت اللغة ، فما تبضّ إلا بقطرة ما فيها ري ولا بلل ... وهل في اللغة إلا أن تقول : جميل ولطيف ومدهش وعظيم ؟ أو ليس الجمال مئة ألف نوع ؟ أو ليس للدهشة مثلها من الأسباب ؟ فأين الكلمتان الجامدتان من هذا العالم الحيّ ؟ إننا معشر البشر ما تعلمنا النطق إلى اليوم .

(١) غرف النواطير .

وبلغنا دمشق ، فقلت للقوم : إن في سفر الطبيعة صفحات مختلفات ، في كل بلد صفحة منها : فسهل وجبل ، وواد وصحراء وبحر ونهر ، فتعالوا أشرف بكم على صفحة فيها كل الصفحات ، تعالوا أطلعكم على دمشق ، وقد رأيتم منها سهلها وغوطتها ، لتروا جبلها وصحراءها وواديها ، فأبوا عليّ وجنحوا إلى الهرب ، وتعللوا بالتعب ، وأصررت وأبيت ، فرأيتهم لانوا كارهين ، فاغتنمت لينهم ، ولم أبال كراهيتهم لعلمي أن ماسيرون سيقع منهم موقع الرضا وفوق الرضا .. وأخذنا سيارة من المرآب (الكاراج) الذي استودعناه حقائبنا ، إلى (الدار) التي استأجرها لنا أخي ، في (الجادة الخامسة) . فما انعطفت بنا السيارة نحو (طريق الصالحية) ، وشاهد أصحابنا البيوت ترتقي في الجبل ، وهو يجلسها في حجره ، ويحوطها بذراعيه ، وينحني عليها برأسه الهائل المتوج بالصخر ، حتى تبدل سخطهم رضا ، وطفقوا يسألون !... فقلت : أما الذي إلى اليمين حيث البيوت الواطية المتلاصقة ، والمآذن الكثيرة السامقة والقباب ، فحيّا الأكراد والصالحية ، وقد أنشأ حي الصالحية الجد الأعلى لآل قدامة أو آل المقدسي ، حين نزح إلى دمشق منذ ثمانية قرون فراراً من فلسطين ، وما حاق بها يومئذ من المحنة . وأما الذي إلى اليسار فحيّ المهاجرين ، وقد كان قبل ثلاثين سنة جبلاً أجرد ، فأسكن فيه ناظم باشا (المهاجرين) من (كريت) بعد عدوان اليونان عليها ، وبنى لهم أكواخاً صغيرة ؛ ثم حالت الحال فصارت قصوراً للأغنياء ، غير أنها لاتزال بقية من تلك الأكواخ خلال القصور[1] ، ولا تزال قطع جرداء من الجبل أو صخور من صخوره ماثلة بين الدور .

وذهبت السيارة ترتقي في الطريق الصاعد إلى (المهاجرين) وكلما علونا فيه شيئاً ، بدت لنا من دمشق والغوطة أشياء حتى إذا بلغنا نهاية الطريق الذي

---

(١) كان هذا عند كتابة هذا الفصل .

يمشي عليه (الترام) انكشف لنا أعظم منظر تقع عليه عين : من ورائنا الجبل الفتان (قاسيون) ، وهو في الجبال كالفتى الغرانق في الرجال ، قوي ولكنه وديع ، وحلو ولكنه عظيم ، ومن أيماننا جبل المزة ووادي الربوة ، ذاك الذي يجري فيه بردى في السبعة الأنهار التي تتسلسل كأنها أطواق اللؤلؤ على أحلى جيد ، تمتد من صلب هذا الجبل حيث يجري (يزيد) إلى سفحه ، حيث يمشي (تورا) من تحته ، إلى أسفل إلى الوادي ، إلى سفح الجبل الآخر ، إلى صلبه ؛ والأشجار على ضفاف الأنهار كلها ، والشلالات تنحدر من الأعلى إلى الأدنى ، تتكسر على الصخور ، وتنحط تخالطها أشعة الشمس ، فيكون لها بريق ولمعان كلمعان الألماس ، وأين منها لمعان الألماس[1] ؟ وعن شمائلنا الفضاء الرحب ، تملؤه الغوطة كبحر ماله آخر ، أمواجه خضر .. وتقوم في وسطه دمشق ، دمشق الجميلة ، دمشق القديمة ، دمشق الخالدة . وهذي ماراتها منتصبات وسط البيوت كأنهن إذ يصدحن بالأذان أصابع المصلين تمتد للتشهد .

قلت : هل بقي من الطبيعة لون لم تحوه دمشق ؟ هذا الجبل ، وهذا الوادي ، وهذه السهول ، وهذه البساتين ، والصحراء صحراء المزة . وأنت تجوز بهذا كله ماشياً على قدميك في نصف ساعة ، وهنالك البحيرة تبدو لكم من وراء الغوطة . فهل بقي من الطبيعة لون لم تحوه دمشق ؟

قالوا : لا والله ، إلا أن يكون البحر ، وهذا بحر من الخضرة . شهدنا أنه لا إله إلا الله ، وأن دمشق أجمل بلاد الله !

قلت : شهدتم وأنتم في (الجادة الأولى) فكيف إذا صعدتم إلى (الجادة الخامسة) ؟

وبعد : فيا أسفي على أيامي التي قضيتها ساكناً في (البلد) ، ويا عجباً من

---

(١) هذا هو الأصح وبعضهم يسميه الماس .

قوم عنـدهم (حيّ المهـاجرين) ويقطنون في غيره ، وعنـدهم قـاسيون وينـامـون (تحت) في السهـل ! وكيف يـؤم النـاس المصـايف ، ويـذهبـون إلى بلـودان ولبنان ، وهنا (الجـادة الخـامسـة) لو حلف رجل بـأوثق الأيمـان ، على أنهـا قـد تبدو أجمل من لبنـان ، وأعذب ماء ، وأطرى هواء ، لما أثم ولا حنث .

اللهم عفوك ! فـإني والله لاأستحـق هـذه النعمـة ، ومـا لي على أداء شكرهـا طاقة !



ينظر سـاكن البلـد فلا يرى حولـه إلا قليلاً ممـا يُرى ، فيحس أنـه في دنيـا صغيرة تافهة ، فإذا قطن (الجادة الخامسة) تكشفت له الدنيا وتعرت ، فرآهـا في زينتهـا وفتنتهـا فـأحس أنـه مع رفيق يؤنسـه ، وحبيب يسليـه ، حبيب تراه في الصباح كغادة جميلة في جمـالهـا طهر ، وفي عينيهـا صفـاء توحي إليـك التـأمل ، وتسمو بـك فوق الشهوات ، وتراه في ضوء القمر كآنسـة مغريـة فتـانـة ، تهيـج في نفسك الحب ، وتشعل في أعصابـك النـار ، وتسمع من (الجـادة الخـامسـة) كلمـة الخلود في دنيا الفناء ، تتجاوب بهـا مـآذن الحيّ ، وتبصر المنـارات تضيء في الليل من كل جانب ، فيسمو بك النداء حتى تحسّ أن هذه (الدنيـا) قـد سمت كلهـا ، حتى صارت هي (العليا) .

فمـا أعظم (الأذان) عنـد من يسمعـه من (الجـادة الخـامسـة) ! ينـادي في الفجر السـاكن الخاشع ، لا يشغلكم سكونه وسحره عن عبـادة الله والاتصـال بـه !. وينادي في النهار الكادح العامل لا تصرفكم الدنيا عن صلاتكم ودعائكم !. وينـادي والشمس تغيب من أعالي الجبل فيدرك ذروته المساء والبلـد والغوطـة سـابحـان في نـور الشمس ، وينـادي حينمـا يعم الـدنيـا سحر الغروب ، وينـادي حين يبـدأ الليل ، وتستعد الفضيلة للنوم ، وتتهيأ الرذيلة للسهر !.

في (الجادة الخامسة) يشعر الإنسان أنه يندمج بهذا الكون فيأنس به ، ويطمئن إليه ، ثم إذا هبط إلى البلد فكر فيه واشتاق إليه !.



كل شيء في (الجادة الخامسة) ساكن حالم ، أما (البلد) فكل ما فيه مضطرب متوثب . هنا الشعر والتأمل ؛ وهناك . هنالك تحت هذه السقوف التي تظهر خاشعة في ضباب الصباح ، ووهج الظهيرة ، وظلمة الليل . خلاف وتنازع على الرياسة ، وانقسام وفشل . هنالك هبطت قيم الأخلاق وامحى الإيثار ، فالأخوان يصطرعان[1] ، والعدو - عدوهما معاً - واقف يصفق لهما ليهيجهما ، لتخور قواهما ويسقطا من الإعياء ، فيقبل ليفعل بهما ما يشاء . هنالك صار التاجر المفلس من أقطاب السياسة ، والعامل المطرود من أقطاب السياسة ، وكل الناس من أقطاب السياسة ومن زعماء البلد . لم يبق تلميذ لدراسته ، ولا تاجر لدكانه ، ولا محام لمكتبه ، ولا طبيب لعيادته ، ولا رجل لما خلق له ، ولكنهم جميعاً للخلاف والتنازع ، كل حزب يهدم الأحزاب فتنهدم جميعاً ، ويبني العدو ما يبتغي . أرى هذا كله من (الجادة الخامسة) فأتألم ولكني لا أتكلم ، لم يبق لمثلي مجال للكلام .

أرى هذا فأذكر بغداد ، وما خلفت في بغداد . خلفت فيها النظام والاتحاد ، والطلاب الذين جعلهم نظام الفتوة جنداً ، ونحن المدرسين الذين صيّرنا ضباطاً ، لهم شارات الضباط وحياتهم وقانونهم .

خلفت الاستقلال الذي لا تشوبه شائبة ، والشعب المتوثب ، والجيش القوي ، والاستعداد لنصرة كل قطر عربي .

---

(١) أعني الصراع الحزبي .

اشهدوا أني أحب بغداد ، إني أحبها ولكن دون حبي دمشق .

أحب بغداد وأفخر بها ، وأحب دمشق حباً أكبر ولكني آسى عليها ، وأرجو لها مثل ماأعطيت بغداد على أن تتم لبغداد نعمتها .

☆ ☆ ☆

اللهم ! إن تحت كل شجرة من أشجار الغوطة جثة شهيد مات دفاعاً عن هذه الأرض الطاهرة التي سقيت بالدم ؛ ثم إنها لم تخلص لأهلها ، ولم تَنْجُ من الغاصب الدخيل ، اللهم كما جعلت دمشق درة الكون ، ومنحتها مالم تمنح بلداً ، أكمل عليها نعمتك وهب لها الحرية والمجد .

☆ ☆ ☆



ساقية في دمشق

نشرت سنة ١٩٣٥ م

(كل ما في الوجود يولد ويحيا ويموت ، ألا تمر بالدار ألف مرة فلا تلتفت إليها ولا تحس بها ، ثم ترى فيها إنساناً يتصل قلبك بقلبه ، ويمتلئ فؤادك بحبه ، فإذا هذه الدار تولد في فكرك ، وتنمو وتزداد لهذا الإنسان حباً ، فتزداد الدار عندك حياة ، ثم ينزح الحبيب عن الدار ، فإذا هي تموت ، وإذا أنت تتألم لموتها ، وتبكي فيها ذكريات لك عزيزة ، وماضياً لك حلواً ، ثم تمحو الأيام هذه الذكرى ، وتنسيك هذا الماضي ، فإذا الدار قد عادت إلى العدم ، كما بدأت من هذا العدم ، وإذا أنت تمر بها بعد ذلك ألف مرة ، فلا تلتفت إليها ، ولا تحس بها) .

هي ساقية صغيرة عرفتها حين عرفت الدنيا ، تجري في رحبة (الدّحداح) ، في ظاهر دمشق ، فكنت أزورها دائماً ، وأجلس إليها راضياً وساخطاً ، مسروراً ومكتئباً ، شجيّ النفس وخليّ البال ، فأحدثها حديث سروري ورضاي ، وأبثها شجوي واكتئابي ، فأجد فيها الصديق الوفيّ ، حين عزّ في الناس الصديق ، والأخ المخلص حين ارتفع من الأرض الإخلاص ، وكنت أفرّ إليها كلما نابتني من الأيام نائبة ، أو نالني الدهر بمكروه ، فأجد فيها عزائي وأنسي ، وراحة نفسي ، ففررت إليها أمس كما كنت أفرّ ، فإذا الأرض غير الأرض ، وإذا الساقية قد عدا عليها الزمان فمحاها ، وأقام دار البستاني على رفاتها ، فجلست على حافتها الجافة ، أودع هذه البقعة الحبيبة إليّ ، قبل أن تبتلعها المدينة الضاجّة الصاخبة ، التي ابتلعت ما كان حولها من حقول واسعة ،

ورياض وجنات ، وأشيّع حياة لي في هذه الساقية ، كلها سعادة واطمئنان ، عشتها كما تعيش الضفادع ، غير أن الضفادع تسبح في ماء الساقية ، وتنام على كتفها ، وأنا أسبح في ذكرياتي التي أودعتها حافتيها ، وآمالي التي رأيتها من خلال أمواهها . وهل يعيش ابن آدم إلا في الساقية والطريق ، والقمر والمئذنة ؟ أليس في كل ساقية يجلس إليها ، وكل طريق يسلكه ، وفي القمر الذي يتأمل صفحته في الليالي البيض ، والمئذنة التي يرى هلالها من شباك غرفته ، أليس في كل ذلك أثر من نفسه ، وقطعة من حياته ؟

رحمة لك أيتها الساقية ، منذ كم أنت تجرين وتسرعين ، أفبلغت غايتك بعد جرْي القرون ، أم قطعك عنها عدوّ جبار ، أم أدركك عجز الشيخوخة وضعف الهرم ، فجف ماء حياتك كما تجف الحياة في عروق الشيخ الهرم ، وفروع الشجرة النخرة ، وجدر البيت الخاوي .

وهل كنت تجرين يوماً واحداً لو عرفت أن غايتك الفناء وأنك إنما تسعين إلى أجلك برجلك ؟ وهل كان يبني الباني ، ويزرع الزارع ، ويعمل العامل ، لو عرف أن أجله أدنى إليه من أمله ، فبينما هو ينتظر إشراق الفجر ، إذ احتوته ظلمة القبر ، وبينما هو يحلم بالسراب ، إذ واراه التراب ؟

وهل كان يطمع في الحياة طامع ، لو عرف أن كل يوم يزيد من حياته إنما ينقص من حياته ، فإذا بلغ كمال الحياة فقد صار إلى الموت ؟ إن الإنسان يأمل أن يملك الدنيا ويعيش إلى الأبد ، وأنت تأملين أن تصيري نهراً ثم تصبحي بحراً ، والله يريد أن تتم حكمته في الحياة فيسعى كل ساع إلى الفناء[1] ، يدعوه الأجل ،

(١) إنما عنيت فناء هذه الحياة الدنيا ، أما فناء الإنسان فهيهات ، إنما هو البقاء في نعيم الجنة ، أو في عذاب النار .

ولو أنا إذا متنا تُركنا لكان الموت راحةَ كل حيّ
ولكنا إذا متنا بُعثنا ونسأل بعدها عن كل شيّ

رحم الله قارئاً دعا لنفسه ولي بالمغفرة .

ويحدوه الأمل ، ولا راد لما أراده الله . وهل كنت تذكرين أيتها الساقية أصدقاءك وأحباءك وتحنّين إلى ذكراهم ، وتبكين عهدهم ، أم قد أمات حسك تقلب الأيام وغدر الزمان ، فأقبلت تجرين لاتذكرين ماضياً ولا تحفلين حاضراً ، ولا تنتظرين آتياً ؟

وهل تذكرين يوم فررنا إليك من شيخ الكتّاب القاسي ، وعصاه الطويلة التي كان ينال بها رؤوسنا وهو على سرير ملكه ، في هذه الغرفة الضيقة المثقبة الجدران ، المسدودة النوافذ الفاسدة الهواء ؟ لقد مللنا البقاء في هذا السجن الرهيب ، فشكونا إلى أهلينا فما وجدنا مُشْكِياً ، فتجاوزنا (البحرة الدفاقة) وتخطينا هذا السياج ، ولجأنا إليك فما لقينا منك إلا الكرم والعطف والإحسان ، آمنت خوفنا ، وبدلتنا بمدرسة الشيخ وعصاه ، هذه الدنيا الفسيحة وهذه الحقول التي لاتنتهي ، فطابت أنفسنا بجمال الكون ، وانجلت أبصارنا بمرأى البساتين ، ونظرنا من هنا فإذا قبة النسر ومآذن الأموي ، تشرف علينا جليلة عظيمة ، فاستشعرنا جلال الدين وعظمته ، ونظرنا من هناك فإذا قاسيون يطل علينا مشمخراً عالياً ، تقوم عليه الدور البيض ، والقصور الحمر ، فأحسسنا جمال الدنيا ، وسموّ المجد ، وعزة الغنى . وأدركنا بعقولنا الصغيرة أن الشيخ كان على ضلال ، وأن أهلنا كانوا على خطأ ، وأن العلم قد يحصل في الدنيا الواسعة والبقاع الجميلة ، أكثر مما يحصل في السجون والكتاتيب ، وأن جمال الحقل أبلغ في التهذيب من عصا الشيخ .

في تلك الساحة عرفتك أيتها الساقية ، فمنحتك الودّ والإخلاص ، وجعلتك صديقتي إذ لم أجد في بيتي ومدرستي صديقاً ، وكنت أرى طيفك في أحلامي ، فأهشّ لك وأنا غارق في منامي ، وأتخيل صفاءك وعطفك وأنا بين يدي الشيخ الجبار ، يقرع رأسي بالعصا ، ويصرخ في وجهي بصوته الأجش الخشن : (يا

ولد يا خبيث : والله إن عدت إلى الهرب كسرت ساقيك) ؛ فلا أرد عليه ، وإنما أستر وجهي بكفي وأضحك بصوت غريب ، فيظنني أبكي فيدعني وينصرف إلى غيري ، فأنظر من بين أصابعي حتى إذا رأيته قد غفل عني ، قفزت إلى الشارع ، فاختبأت في (جامع التوبة) أو أخذت طريقي إليك ، فآكل من الثمار التي حولك ، وأشرب من مائك ، وأصافحك بيدي شاكراً ، وأمسح بكفيك وجهي . هل تذكرين ذلك أيتها الساقية ؟

هل تذكرين كيف جئناك بعد ذلك ، وقد تخلصنا من الشيخ ودخلنا المدرسة ، فوجدنا ساحة رحبة ومعلمين كثيرين ، وحصصاً قصيرة ، ولكننا لم نجد عطفاً ولا ابتساماً ؟ كان معلم الحساب يحبب إلينا شيخ الكتاب ، حتى نراه إلى جنبه نعيماً ، كنا نرى طيفه أمامنا حيثما سرنا بشاربيه الكبيرين وتقطيبه الدائم ، ونظاراته التي يحدرها أبداً إلى أرنبة أنفه ، وصوته الذي يشبه صوت من يتكلم من جوف برميل ، فكنا نرتجف من خياله ، ونخشاه أبداً ، إلا إذا أصبحنا في حماك ، فإننا نأمن ونطلق أنفسنا على سجيتها ، فنسخر من المعلم ، ونقلد الشيخ ، ونمرح ونعدو ، ثم نعود إلى الدار ونحن ممتلئون قوة ونشاطاً ، فإذا سألنا الأهل أين كنتم ؟ قلنا : كنا في المدرسة . وإذا سألنا المعلم ، قلنا : كنا في البيت ! فيصدقوننا جميعاً . أو ليسوا قد حملونا على الكذب حملاً ، حين كرَّهوا إلينا العلم ودفعونا إلى الفرار ، وعاقبونا على الصدق ، ولم يرضوا منا إلا بالكذب ؟ وهل تذكرين يوم جاءت دمشق أولُ سيارة وكنا جالسين حولك نتحدث حديث الحرب وما يمكن أن يصل إلينا من أخبارها ، فما راعنا إلا عربة غريبة الشكل تسير من غير أن يجرّها حصان ، فطار الفزع بألبابنا ، وفررنا نحسب أن الجن تسيرها ، ثم سمعناهم يدعوننا ورأينا ضباطاً تلمع الأوسمة على صدورهم ، والسيوف على جنوبهم فأمرونا أن نلقي الأحجار فيك أيتها الساقية ،

ليمر عليها (الأطنبير)[1] فأطعنا وفعلنا مكرهين ؟ ومن كان يستطيع أن يخالف أمر ضابط من ضباط جمال باشا ؟

فلما مرت هرعنا إلى دورنا نخبر أهلنا أن عربة تمشي من غير أن يجرها حصان .. فتنبري لي عمتي ، وتكذبني وتسبني :

ـ (اخرس يا كلب ، يا كذاب ، إن هذا مستحيل) ولكن عمتي التي أبت أن تصدق أن في الدنيا سيارة تمشي بنفسها ، قد عاشت حتى رأت الكهرباء والتلفون والراديو ، ورأت الدبابة والمصفحة والمتراليوز . ثم رأت (أثر) الحضارة في أنقاض دمشق ، فصارت متهيئة لتصدق كل شيء !

وهل تذكرين كيف عدنا إليك أيتها الساقية ، فإذا أنت حردة غضبى قد وقفت عن سيرك وضللت طريقك ، فتطلعتِ إلى اليمين والشمال ، والأحجار قائمة تسد عليك سبيلك ، فعالجناك واعتذرنا إليك ، وطيبنا قلبك ، وفسحنا لك السبيل ، فجريت مضطربة متغيرة الوجه ، تبكين أيامك الماضية ، وتخافين ما يأتي به الزمان .

وهل تذكرين يوم كنا حولك ، ونحن آمنون مطمئنون فإذا الأرض قد ارتجت ، وإذا الجيش التركي الذي كنا نخافه ونخشاه قد ذل بعد عزّ ، وضعف بعد قوة ، وفر متفرقاً حائراً لا يدري إلى أين يقصد ، ومن ورائه العرب والإنكليز ، يدخلون الشام ظافرين ، فسررنا وفرحنا ، وصفقنا وهتفنا ، ولكنك جريت واجمة حزينة لأن حياتك الطويلة وما رأيت من دولة الدول ، وهلاك الملوك ، علمتك أن من يؤمن لمن لم يتبع دينه[2] ، كمن يدخل النار ويرجو ألا تحرقه

(١) أي الأتوموبيل .

(٢) كما فعل الحسين بن علي

النار ، ثم حققت الأيام ظنك وصدقت حدسك ، فقلنا : يا ليت ! وهل تنفع شيئاً ليت ؟

وهل تذكرين يوم كنا جالسين إليك ، وحولنا هذه الحقول تمتد آمنة إلى مالا يدركه البصر ، وإذا بعدو جبار يأتي من وراء الحقول الآمنة ، فيشقها شقاً منكراً ، ويثغر فيها ثغرة هائلة ، حتى إذا بلغك ألقى عليك نظرة ازدراء واحتقار ثم سار في طريقه حتى بلغ سفح الجبل ، فتمطى ثم تمدد ثم نام نومة الأبد وإن رأسه لفي الصالحية ، وإن رجليه لفي حي النصارى . فلما رآه أحبابك وأصحابك آثروه عليك فلم يعد أحد يستطيب الجلوس إلى ساقية صغيرة بعد أن فتح (شارع بغداد) ليجول فيه الشباب ، مرجلة شعورهم ، مصقولة وجوههم يسيرون مائلين مميلين ، فصبرت وتجلدت ، ورجعت تجرين كما كنت تجرين منذ عشرة آلاف سنة ، كأنك لا تحفلين شيئاً .

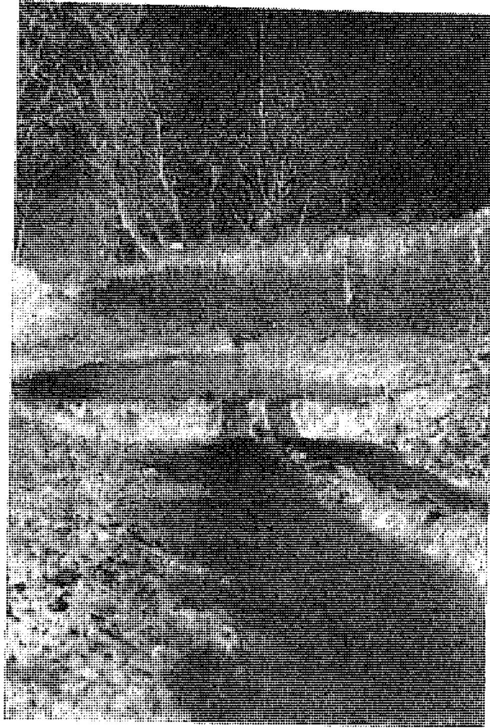
لقد عشت عزيزة مكرمة ، منذ وطئت هذه الأرض أول مرة ، فلم ينتهك حرماتك أحد ، ولم يعث في حرمك الآمن عائث ؛ رغم الحوادث والأرزاء ، أفانْتهى بك الأمر إلى أن يقتلك بستاني ؟ لقد سقيت هذا البستاني وأباه وجده ومن قبلَهم إلى تسعمئة جد ، فكانت عاقبة هذا الإحسان أنه لم يبن بيته إلا على رفاتك ، ولم يكن أساس منزله إلا قبرك ؟ لا بأس أيتها الساقية ، فإن الإنسان مذ كان منكر للمعروف جاحد للإحسان .

لا بأس ! فإن ملكاً لن يدوم ، وقد رأيت الترك والروم واليونان ، فهل رأيت ملكاً يبقى ، هل رأيت الدنيا دامت على أحد ؟ أما كانت دولة الترك عظيمة ؟ أما جلّت دولة الرومان ؟ أبقي من هذا كله شيء ؟ لا ، يا أيتها الساقية ، إنه لا يبقى إلا الإسلام ، لأنه من ملك الله الباقي .



رحمة لك أيتها الساقية ، وسلام على تلك الأيام الجميلة التي عشت فيها إلى جنبك ، لاأعرف هم الدنيا ولا نكد الحياة ، لقد كنت أفر إليك من عصا الشيخ ، وعقاب المعلم فتؤويني وتحميني ، فلمن أفر اليوم من حياتي التي ضاقت علي ، ونفسي التي برمت بها ، لقد ضعتُ كما ضعتِ أيتها الساقية وجفت آمالي كما جففت ، وانتهى بي المطاف إلى أن أكون شيخ كتاب ! ولكن لا بأس أيتها الساقية ، فإن الدنيا لاتدوم على حال .

فرحمة لك ، وعلى ذكراك السلام .



إلى دمشق بلدي الحبيب

نشرت سنة ١٩٣٥ م

(في هـذا اليـوم « ٨ مـارس » ولـد الاستقلال السوري الذي عاش عامين ثم مات في « ميسلون ») .

متى يـا زمـان الشـؤم يعـود بلـدي كما برأه الله دار السـلام ومعرض الجمـال ، ومثـابـة المجـد والغنى والجلال ، متى يرجع بَرَدى يصفق بـالرحيق السلسـل ؟ متى تثـوب الأطيـار المروعـة إلى أعشـاشهـا التي هجرتهـا ، ورغبت عنهـا حين سمعت المدافع ترميها بشواظها الحامي ؟ متى تؤوب تلك الحمائم فتشدو على أفنان الغوطـة تنشد أغنية السلام ؟

متى ؟ يا زمان الشؤم .

أتظل الأشجار عارية في جنات الغوطة ، لاتعلو هاماتها تيجان الزهر ، ولا تتدلى أغصانها بعناقيد الثمر ، لأن الزراع قد أغفلوها فلم يتعهدوهـا بـالسقيـا ، ولم يجروا إليهـا المـاء ؟ أتبقى هـذه الحقول والجنـائن جرداء قـاحلـة ؛ لأن الفلاحين انصرفوا عنهـا مستجيبين لنـداء الوطن الجريـح ، الممـزق الأوصـال ، مهطعين إلى داعي الجهاد حين أذن بهم : حي على خير العمل ؟

متى ؟ متى يا زمان الشؤم يستريح الشام (بلدي الحبيب) .

ما رأيتك استرحت يا (بلدي الحبيب) ساعة واحدة ، فهل كتب عليـك أن تظل أبداً في تعب وعناء ؟ إني لم أكد أتبين نور الحياة وأبصر وجـه الـدنيـا ، حتى رأيت المدرس يدخل علينا (معشر الأطفال) مربد الوجه فزعاً مذعوراً . فسألنـا

أن ماله ... ؟ فقالوا لنا كلاماً لم نفهم لـه معنى ، قـالوا : إنهـا الحرب ! ولكن أي حرب ، إن المدرسة مفتوحة ، والأسواق قائمة ، والمدينة هـادئـة مطمئنـة ، فـأين هي هذه الحرب ؟

قالوا : هي هنـاك في مكان بعيـد . فضحكنـا وقلنـا : هل هنـاك أبعـد من (الصالحية) أو (المزة) ؟ إننا لانبلغها حتى نمشي ساعة على الأقدام ، وليس فيها حرب ، فأين هي هذه الحرب ؟

وهزئنا ولبثنـا نلعب ، ولكن الأيـام أرتنـا واأسفـاه هـذه الحرب : رأينـا في أسواق دمشق ، عندما شاهدنا القتـال يـدور فيهـا كل صبـاح من أجل رغيف من الخبز ، والفرن مغلق مافيه إلا كوة واحدة مفتوحة ، يقوم عليها الخباز والجنـدي إلى جانبه ، يدعو واحداً بعد واحد من هؤلاء الناس الذين سدوا الشـارع بكثرتهم لا يطلبون صدقة ولا إحساناً ، وإنما يطلبون الخبز بـالـذهب فلا يجـدونـه ، ومـا شحت السماء بالقطر وما أجدبت الأرض ، ولكن (حلفـاءنـا) الألمـان استـأثروا بأطايب القمح ، وتركوا لنا شر الحنطة وأخبث الشعير ، ثم يا ليت أنا وجدناه .

نعم ، لقـد رأينـا (نحن الأطفـال) الحرب في شـوارع دمشـق حين أبصرنـا الرجال يـأكلون قشور البطيخ ، وينبشون المزابل من الجوع ، ثم رأينـاهـا أوضح وأظهر ، حين لم نعـد نبصر في الشـام رجـالاً ، لأن الرجـال أكلتهم الحرب . ثم رأيناها أشد ظهوراً بطلعتهـا الكالحـة القبيحـة ، حين تعودنـا مرأى جثث النسـاء والأطفـال ، الـذين مـاتوا من الجوع ، نراهـا كل صبـاح ومسـاء ، في غـدوّنـا إلى المدرسة ورواحنا منها .

في وسط هذه المذبحـة المرعبـة ، وخلال رائحـة البـارود ، وعزيـف المـدافع ، وإعـوال اليتـامى والثـاكـلات ، نشـأت وعرفت الحيـاة فرأيت (البلـد الحبيب) نصفه مقبرة للأموات ، ونصفه مستشفى لمن ينتظر الموت .

وفي ذات صباح أفقنا على قصف يزلزل البلد ، ويهزّ الدنيا ، فسألنا : ماالخبر ؟ قالوا : البشارة : هذا مستودع الذخائر يتفجر ويحترق ، لقد أباده الألمان قبل هزيمتهم ، لقد انتهت الحرب ، وانتهى حكم الظالمين من أحفاد جنكيز خان . وبعد ساعة واحدة يصل الشريف فهبّوا لاستقباله ، فنهضنا ولكنا لم نبادر إلى استقباله ، وإنما بادرنا إلى الجيش المنهزم نذبحه ! فلما فرغنا منه مسحنا أيدينا من دمه وعدنا نستقبل الشريف .

نسيت دمشق جوعها وتعبها ، ونسيت نصف رجالها الذين ماتوا على شاطئ غاليبولي ، وعلى ضفاف الترعة ، في سبيل مصالح الألمان ، ونسيت أحزانها على من عانقتهم حبال المشانق في ساحة المرجة في دمشق ، والبرج في بيروت[1] ، وتكلفت دمشق الابتسام بل لقد ابتسمت حقيقة لما رأت وجه فيصل ، وذهبت تبتغي أن تنثر على موكبه من أزهار الغوطة جنة الدنيا ، فلم تجد في الغوطة زهرة واحدة ، لقد صيرتها الحرب قاعاً صفصفاً ، فنثرت على موكبه أزهار القلوب : دموع الفرح ، وهتاف المحبة ، وتصفيق الإعجاب . وحيّت لأول مرة العلم العربي الذي يرفرف اليوم فوق بغداد .

ووثبت ترقص من الطرب وتغني ، حتى كأن كل يوم من تلك الأيام عيد ، وفي كل بقعة من الشام عرس ، وفاض الخير وابتسم الزمان ، وطغت الحماسة على الأفئدة ، وعم البشر الوجوه ، وولدت دمشق الأموية عاصمة الأرض مرة ثانية ، وظننت أنك استرحت يا بلدي الحبيب .



ولكنا لم نلبث إلا قليلاً حتى سمعنا صوت النذير ، ماذا ؟ ماذا هناك ؟ فقال : انهضوا دافعوا عن استقلالكم الوليد ، لقد جاءت القوة العاتية تخنقه في

(١) فيهم ناس الله أعلم بحقيقة حالهم .

مهده ، فثارت ثورة دمشق ، وعصفت النخوة في رؤوس بنيها ، فلم تمض العشية وينبثق الفجر حتى كانت دمشق كلها في بقعة الشرف في (ميسلون) ، ولم يؤذن الظهر حتى رجعت دمشق من ميسلون ، وقد تركت فيها استقلالها الوليد ، وقائدها الشاب ، صريعين مجندلين على وجه الثرى ، هذا قتيل شهيد ، وذاك جريح مريض ، وفقدت دمشق كل شيء ، ولكنها لم تفقد الشرف ، كما قال من قبل فرانسو الأول ملك الأقوياء الذين دخلوا دمشق دخول المنتصرين الفاتحين .

وعاد (بلدي الحبيب) إلى حياة الرعب والأسى والنضال .

ولكنه لم يخف ولم يجبن . لقد خسر في (ميسلون) ولكنه حفظ الدرس الذي ألقته عليه الحياة في ذلك اليوم . واستراحت دمشق حيناً ، ثم قفزت قفزة اللبوة الغضبى ، فإذا هي في العرين (في الغوطة الخضراء) ، وإذا الأقوياء بجيشهم كله وعتادهم يقفون أمام الثائرين ، وهم بضع مئات يقودهم رجل أمي من دمشق ، كان خفيراً من خفراء الأحياء ، فلا يستطيع الأقوياء الظفر بهم ، فيعودون حنقين ، فيسلطون نيران مدافعهم على المدينة الآمنة المطمئنة ، فلا يروعها إلا جهنم قد فتحت أبوابها من فوقها ، فيخرج أهلها من منازلهم تاركين كل مافيها للنار ، ويمسي المساء على دمشق وثلثها خرائب كخرائب بابل ، وقد كانت في الصباح أجمل وأبهى وأغنى قصور دمشق .

وتعيش دمشق سنتين وسط الرعب والنار والحديد ، ثم يحل السلام ، وتخرج دمشق من المعركة وقد نجحت في الامتحان الثانوي في الغوطة ، كما نجحت من قبل في الامتحان الابتدائي في ميسلون .

وأحسب أنك استرحت يا (بلدي الحبيب) .

☆ ☆ ☆

أحسب أنك استرحت ، فإذا النار تسري في أحشائك ، وإذا المعارك في أسواق دمشق ، حول صناديق الانتخاب ، الذي أراده الأقوياء صورياً شكلياً[1] ، وأباه الشعب إلا انتخاباً حقيقياً ، فلما لم يكن ما يريد الشعب حطم الصناديق ، وهدم قاعات الانتخاب ، وانطلق ثائراً مرعداً مبرقاً ، يهزأ بالحديد ويفتح صدره للبارود ، وظفر الشعب وكيف لا يظفر وقد امتحن مرتين .

فقلنا : قد استراح ، ولكنه لم يسترح ، وإنما دعي إلى الامتحان العالي ، إلى النضال الصامت المرعب ، فثبت وناضل ، ولبثت دمشق خمسين يوماً كاملة ، وهي مضربة ليس فيها حانوت خباز أو بقال ، وليس فيها قهوة مفتوحة ، ووقعت المعارك في الأسواق وعلى أبواب الجامع الأموي ، فأقبل النساء بصدورهن على الرصاص ، وهجم الأطفال على الدبابات ، وعزمت دمشق عزماً ثابتاً على الموت أو الظفر ، وعرف العدو أنها لن تُفل عزيمتها أبداً ، ولن تلين قناتها ، فلانت قناته ، ودعاها إلى الصلح والتحالف .

وهتفنا هذه المرة من أعماق القلوب : لقد استراحت (بلادنا العزيزة) . وعادت أيام فيصل مرة ثانية ، ودقت طبول البشائر وأديرت كؤوس الأفراح ، ورجعت الأعراس .

ولكن الأعراس لم تتم . لم تتم يا زمان الشؤم !

هذا صوت النذير العريان ، وهذه ألسنة النيران ، وهذي رجّة البركان ، فماذا يحمل إلينا الغد يا زمان ، أي مصيبة جديدة يأتينا بها ؟ أكُتِب علينا ألا نستريح ولا نهدأ أبداً ؟

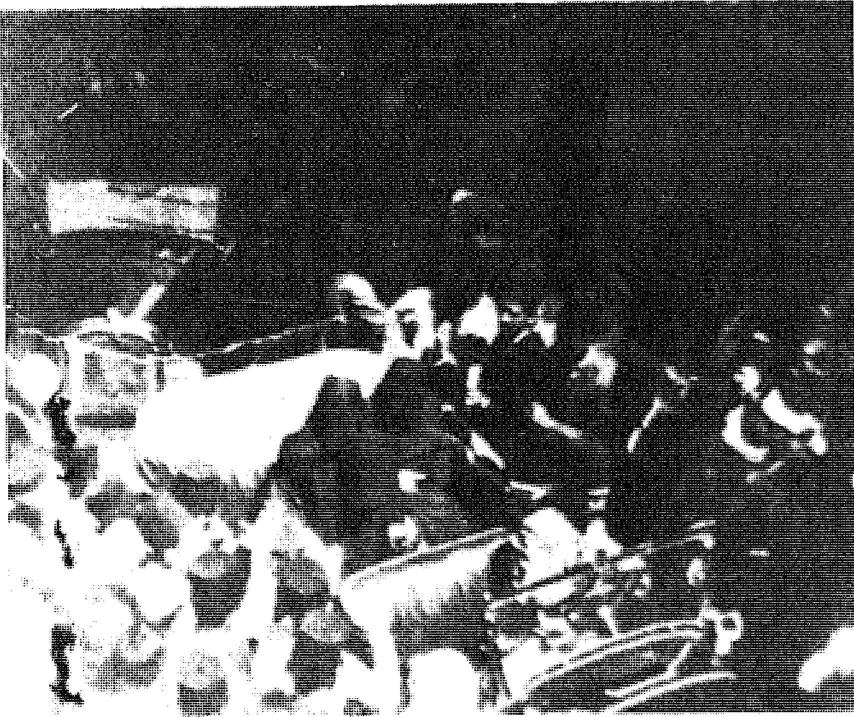
---

(١) أعني انتخابات ٢٠ كانون سنة ١٩٣٠ م وكنت يومئذ رئيس اللجنة العليا لطلاب دمشق ، التي تولت هي إبطال ذلك الانتخاب .

لابأس يا زمن الشؤم ، إننا نرحب بـالمصـائب فسقهـا إلينـا ، إننـا بنو المجـد والحرية والحياة ، فلا أمتعنا الله بالحياة إن لم ننتزعها من بين فكي الموت انتزاعاً .

وستحيا أنت يـا (بلـدي الحبيب) مـاجـداً حراً ، ولو متنـا نحن مـاجـدين أحراراً .

☆ ☆ ☆



خرائب الدرويشية في دمشق

نشرت سنة ١٩٣١ م

(يا أيها الغافلون . إن هذا العيد ليس لنا . إن أعيادنا مخبوءة في ثنايا الماضي الضخم ، ومطاوي المستقبل المنتظر) .

مشيت ليلة العيد في حاجٍ للعيال فتأخرت في السوق ثم ركبت (الترام رقم ١) لأروح إلى الدار ، فكان مجلسي فيه قبالة شيخ كبير ، أبيض الشعر ، زريّ الهيئة رث الثياب . فأشرت إليه بالتحية وابتسمت له ؛ فما طرف ولا تحرك ولا ألقى إليّ بالاً فجعلت أعجب منه ، وأحاول أن أذكر من هو ، وأين رأيت هذا الوجه ، فلا أدري أين لقيته ولا أعرف من هو ، ولا أستطيع أن أميز هذه الصورة ، من بين المئات من الصور التي اختلطت في نفسي ، وانطمست وضلّت عن أصحابها ، ولكني كنت على مثل اليقين بأن لي بهذه الصورة عهداً . فلما بلغنا (الدرويشية) رأيت الشيخ يتحسس عصاه وبصره عالق بي فأدركت أنه أعمى . وأنه ينظر بعين قائمة[1] ، وعلمت سرّ امتناعه عن ردّ السلام ، فرثيت له وأشفقت عليه ، فلما سقط على العصا ، اعتمد عليها فقام يتلمس الطريق فهاجني الفضول وأثارتني الشفقة ، فقمت أتبعه فإذا هو ينزل من الترام فيميل عن الجادة ، ويتجنب هذه البنى الجديدة ويتغلغل في تيك الخرائب ، يضرب فيها على غير هدى ، وأنا أتبعه مغتماً متألماً أكره هذه الظلمة الداجية ، وهذه الخرائب

---

(١) أي مفتوحة ولكنها لاتبصر .

الموحشة ، وأزمع العودة ، فلا تطيب نفسي بفراق هذا الشيخ ، وتركه وحيداً في هذه المجاهل ، فتعوذت بالله ﴿ من شر غاسق إذا وقب ﴾ ودنوت منه فحييته وسألته :

ـ أتريد مساعدة ياعم ؟

ـ قال : جزاك الله خيراً يابني . فمن أنت ؟

ـ قلت عابر سبيل رآك فأحب مساعدتك .

ـ قال : أحسن الله إليك . قل لي أين نحن ؟

ـ قلت في خرائب الدرويشية .

ـ قال : أعرف ذلك . هل حاذينا القلعة ؟

ـ قلت : نعم .

ـ قال : هل ترى قوسين كبيرتين قائمتين وسط هذه الأطلال ؟

ـ قلت نعم . هذه دار آل هـ .

ـ قال أتعرفها ؟ (وبكى) .

ـ قلت : نعم أعرفها فمالك ياعمّ ؟

ـ قال : تلك والله داري يابني .

فلما قالها صعقت ، وذكرت أين لقيت هذا الرجل ، وعرفت من هو ، ولكن مابال هذه الشيبة ؟ ماهذه العصا ؟ ماهذه الثياب ؟ ماالذي أناخ عليه فهدّ شبابه ؟ أي سهم من سهام الدهر أصمى بصره ؟ حرت وحزنت ولكني تجاهلت وقلت :

ـ دارك أنت ياعم ؟

ـ قال : إي والله يابني .. ألم تسمع بها ؟ لقد كانت من أجمل دور دمشق ، لقد كان تحت هاتين القوسين قاعة من أفخم القاعات ، يؤمها السُياح من أوربة

وأميركة ليروها ويعجبوا بما فيها . لقد كان فيها بركة مصنوعة من ألف وثلاثمئة قطعة صغيرة من الأحجار الملونة ، لقد عرضوا عليّ في سقفها الخشبي ثمانية آلاف دينار . ولكن مافائدة الكلام ؟ لقد خسرت ماهو أعز عليّ منها : زوجتي وأولادي ؟ (وانطلق يبكي بكاء موجعاً) .

لقد كان ذلك ليلة العيد ، في مثل هذه الليلة .. وكنا قد ذقنا في رمضان الأمَرّين من الخوف والرعب ، وكنا كأننا في ساحة حرب : بينما نحن جالسون آمنون ، وإذا بالرصاص يصفر ، وإذا هي المعركة : يهجم عشرون من الثوار فيطردون جيشاً ، فيلجئونه إلى القلعة ويضطرونه إلى الاعتصام بجُدُرها ، ويؤوبون وقد غنموا ماشاؤوا من مجد ومال وعتاد ، فيخرج أولئك، فيتبخترون في الساحة (يطلبون الحرب وحدهم والنزال) ، وتنطلق أفواه المدافع تلقي خطب البطولة على النساء والأطفال :

أسد علي وفي الحروب نعامة ... فتخاء تنفر من صفير الصافر
هلاّ برزت إلى غزالة في الوغى ... بل كان قلبك في جناحي طائر



آه يابني ! لاتلمني إذا بكيت وأذهب البكاء بصري ، فلقد سحقت المصيبة قلبي . كان ذلك ليلة العيد ، وكانت الدار تضحك سروراً ، وترقص بهجة ، وكان الأطفال ينتظرون مدافع العيد ، ليفرحوا ويمرحوا ، ويأخذوا عيدياتهم فلما انطلقت هتف الأطفال ، وصاح النساء ، وابتسم الرجال ، ولكن .

آه من لكن . لقد هدت (لكن) كياني ، لقد طمست بصري ، لقد جعلتني قبراً يمشي . ولكن هذا السرور لم يدم ، ولم تكن إلا لحظة حتى استحال الهتاف بكاء ، والصياح ولولة ، والابتسام حيرة وجزعاً ، لم تكن مدافع العيد ، بل كانت مدافع الموت ، نزلت على أجمل دار في دمشق وأهنأ أسرة فيها ، فجعلت هذه

الأسرة موزعة بين الموت والشقاء ، وهذه الدار مقسمة بين النار والدمار ، ثم انجلت العاصفة ، فإذا هذه الدنيا الناعمة العريضة تلّ من التراب .

لقد حزنا وجزعنا ، ولم ندر ماذا نصنع ، فحملت الأم طفلها الرضيع وأمسكت بطفلها الآخر ، وكادت تنجو لولا أن عاطفة الأمومة قد عادت بها لتنقذ سائر أولادها ، فسدت النار سبيلها فابتغت سبيلاً غيره ، فاستقبلها اللهيب ، فماتت هي وأولادها ، يلفهم كفن أحمر من لسان النار .

أما أنا وولدي الشاب ـ رحمة الله على شبابه ـ آه أما نحن فما زلنا نجيء ونذهب ، نحاول أن ننقذ هذا ، ونخلص هذه ، حتى حملنا الجميع وكدنا ننجو ، بل لقد نجوت أنا ، وتلفتّ لأراه فحال بيننا اللهيب ، ورأيته يشير إليّ بسلام المودع ثم يسقط صريعاً .

لم يَنْجُ إلا أنا وولدي الصغير ، وليته لم يَنْجُ ، ولكن ماذنبه هو ؟ إنه بريء ، إنه نشأ على الفضيلة والعفاف ، وربي على الاستقامة والشرف ، فكان أكمل التلاميذ خُلقاً ، وأقومهم سيرة ، وأكثرهم اجتهاداً ، لم يعرف قط إلا طريق المدرسة ، حتى إذا وقعت الواقعة لم يَعِ على نفسه إلا وهو يدور في الأسواق ليلاً بإزار النوم فاستحيا وجزع وعاد إلى الدار . فلم يجد داراً ، وإنما وجد بقعة من جهنم ، وقودها الناس والحجارة ، فارتد هائماً على وجهه ، وكان ذلك آخر عهدي به .

لقد نسي من بعدُ هذه الفترة من حياته ، نسي أباه المفجوع ، وأمه الشهيد ، وأخاه القتيل ، وأهله الصرعى ، واستقر في نفسه أنه مخلوق نبت من الأرض ، في الساحة التي بين سوق علي باشا ، والسوق العتيق ، وشارع النصر وميدان المرجة ، ثم قادوه بعدُ إلى معاهد الرذيلة ، إلى مذابح الأخلاق ، إلى هذه المزابل القذرة ، إلى العباسية وأولمبيا فقتلوه ... آه يابني إنهم لا يقتلون بالقنابل والرصاص والسيوف والخناجر إلا قليلاً ، ولكنهم يقتلون الأمم بالحانات والقينات (الأرتستات) والأزياء ، وربما قتلوها بالمدارس والقوانين .

وأدرك الشيخ العجز فهوى إلى الأرض وهو يبكي ويشهق ، وإن نفسه لتكاد تخرج في شهقة من شهقاته .

وكانت الأنوار تشع من العباسية ، وأولمبيا ، والأمبير وركسي ، وهذه الملاعب الخشبية التي أقاموها على أطلال الدرويشية ، والسنجقدار ، احتفالاً بالعيد ، وكانت أصوات الموسيقى ، ورنات الضحك ، وصيحات الفرح ، تشق سكون هذا الليل .

وكان الشيخ يتجرع أحزانه على أنقاض دمشق لا يدري به أحد ؛ لأن الشعب كان مشغولاً بـ (فرحة) العيد .


منظر تسوق الخيل بعد الحريق

أطفال دمشق

نشرت سنة ١٩٣٥ م

لمن هـذه الرشاشات منصوبـات في الميـادين والطرقـات ؟ . لمن هـذه المصفحات وهذه الدبابات ؟ . تروح وتغدو في الشوارع والساحـات ، لِمَ تحوم في الجو هذه الطيارات ؟ .

لماذا يسـاق هؤلاء الجنود من كل جنس وكل لون ، فمن الشقر ، الـذين زعموا أنهم هم علموا أمم الأرض كيف تكون الثـورة على الظـالمين ، وكيف تنتزع الحريـة من بين أنياب الأقوياء المستبـدين ، إلى السمر الـذين جـاؤوا راغبين أو راهبين ، ليحاربوا إخوانهم المسلمين ، إلى السود السنيغاليين .

من كل أشمـط تـدني المـوت طلعتـه ينسـاب في لهـوات الليـل ثعبـانـا
زعـانف وعبـاديـد برابرة لا يعرفـون لهـذا الكـون ديـانـا[1]

إلى الصفر الهنديين الصينيين : إلى هؤلاء (المتطوعة) أنصار الباطل ، جزاة الخير بالشرّ ، الذين أكلوا خبزنا وحـاربونـا . أكلّ ذلـك لأن هـذا الشعب الأعزل تحرك ؟ أكل ذلـك لأن دمشـق غضبت ؟ تيهي إذن يـا دمشـق واعتزي فـما أنت بالضعيفة ولا بالهينة ، وقد حشدوا لك ما لا يحشدون أكثر منـه لقوم هتلر وشيعـة ستالين .

---

(١) محمد البزم

كانت دمشق يوم الجمعة صابرة ، تتجرع حزنها على (إبراهيم)[1] في صمت رهيب ، وسكون هائل ، فلم تحرك ساكناً . وما دمشق بالتي تعرف أنّة المكلوم ، أو استغاثة العاجز ، ولكنها تعرف الصبر على ما لا يصبر عليه الدهر ، أو الصرخة التي تصدع الصخر ، وتخرج الميت من القبر ؛ وما دمشق بالتي تعرف هذا الاحتجاج الضعيف ، احتجاج (أوسعته شتماً وأودى بالإبل) .. ولكنها تتلقى الضربات بصدر كأنه الجلمود لا يشقّق ولا يرفضّ ولا يلين .

وباتت دمشق على هذا الصمت ، فلم يمض هزيع من الليل حتى سمعت الصريخ فأفاقت فزعة تسأل : ما الخبر ؟ .

ـ قيل : اختطفوا (فخري البارودي) ..

فنفد الصبر المختزن وانفجر الغضب المكتوم لا لأنه فخري البارودي ؛ بل لأن اختطافه كان كالقشة التي قصمت ظهر البعير ، والقطرة التي فاضت منها الكأس ، والقطرة قطرة ولكن الكأس كانت ملأى .

وأقبل أبناء دمشق بأيديهم ، وأقبلت هذه الجيوش بحديدها ونارها ، وكانت المعارك التي يصطرع فيها الحق والقوة ، والدم والنار ، والصدور والحديد ، فبينما معركة من هذه المعارك على أشد ما تكون عليه وإذا ..

وإذا ماذا ؟ ليس على وجه الأرض من يستطيع أن يقدّر ماذا كان ، إلا هؤلاء الشاميون ، وهؤلاء الفرنسيون الذين أكبروا جميعاً هذه البطولة التي لم يرْوِ مثلها التاريخ .

إذا خمسون من الأطفال ، لا تتجاوز سنّ أكبرهم التاسعة ، ينبعون من بين الناس ، يخرجون من بين الأرجل ، منهم التلميذ ذو الصدرية السوداء والأزرار

---

(١) إبراهيم هنانو .

اللامعة ، قد فرّ من مدرستـه ، وحقيبته لا تزال معلقـة بعنقـه ، وحمل مسطرتـه بيده . ومنهم صبيّ اللحـام ، وأجير الخبـاز ، قـد اتحـدوا جميعـاً ، وأقبلوا يهجمون بالمساطر على الدبـابـة وهي تطلق النـار ، وهم يطلقون من حنـاجرهم الرقيقـة ، بأصواتهم الناعمـة ، التي تشبه الآلـة السحريـة التي غنى عليها الفـارابي فـأضحـك وأبكى ، هذه الأنشودة البلدية المعروفة :

وصغـــارنـــا تحمـل خنـــاجر وكبـــارنـــا عَ الحرب واصـــل
يا بِالوطن يا بِالكفن

فـوقف النـاس ينظرون إليهم ، وقـد عراهم ذهـول عجيب . فـارتخت أيـديهم بالحجارة التي كانوا يقـاومون بها الرصـاص . حتى رأوا الأطفـال قـد تسلقوا الـدبـابـة وركبوها ، فاشتعل الدم في عروقهم ، وفي أقحاف رؤوسهم ، فأنشدوا أنشودة الموت :

« يا سباع البر حومي ...... »

وهم يرعدون بها ، فتهتز من جَهْجَتها الغوطـة ، ويرتجف قـاسيون ، أقبلوا كالسيل الدفاع .

ولكنهم رأوا الدبابـة قـد كفت عن الضرب ، ثم انفتح برجهـا ، وخرج منهـا شاب فرنسي يبسم للأطفال ، وإن في عينيـه لأثر الـدمع من التـأثر ، يـداعبهم ، ويقدم لهم كفاً من الشكلاطة ، ثم يعود إلى مخبئه .

إنسانية قد توجد حتى في الدبابات .



ورأيت في هؤلاء الصبية تلميذاً في شعبة الأطفال من مدرستنا ، وكان صغيراً جداً ما أظنه قد أكمل عامـه السـابع ، فـدعوتـه فـأقبل حتى أخـذ بيـدي ، وجعل يرفع برأسه إليّ يحاول أن يتثبت من وجهي ، فقلت :

ـ لماذا عملتم هذا يا بابا ؟

ـ فقال : أخذوا فخغي الباغودي (يريد فخري البارودي)

ـ قلت : ومن قال لك ذلك ؟

قال : أمي ، وقالت لي : هليّ يموت بالغّصاص يغوح عَ الجنة (يريد من يموت بالرصاص يذهب إلى الجنة)

ـ قلت : وإذا أرجعوا فخري البارودي ، هل ترضى ؟

ـ قال : لا . خلي يغوحوا (يروحوا) هدول كمان ما بدنا ياهم ! (يريد فليذهب هؤلاء أيضاً ، لا نريدهم) فسكتّ : فقال :

ـ أستاذ ليش الإسلام ما لهم عسكغ (عسكر) ؟

فأصابتني كلمته في القلب ، ووجدت كأن شيئاً جاشت به نفسي ثم صعد إلى رأسي ، ثم وجدته في قصبة أنفي ، وآماق عيني ، ودق قلبي دقاً شديداً ، فتجلدت ومسحت عيني ، وحككت أنفي ، وقلت له :

ـ أنتم يا بابا عسكر الإسلام .

ـ قال : نحن صغار !

ـ قلت : ستكبرون يا بابا ، أنتم أحسن منا ، نحن لما كنا صغاراً كنا نخاف البعبع ، ونخشى القط الأسود ، وأنتم تهجمون على الدبابة فالمستقبل لكم لا (لهم) .



مقدمة كتاب عن دمشق

نشرت سنة ١٩٣٦ م

كنت العام الماضي ، معلماً في الصف الثالث ـ من مدرسة طارق (في المهاجرين) ـ فكنت أفهم التلاميذ إبان (الحوادث) معنى الاستقلال ، وأشرح لهم فكرة الحرية ، وأبين لهم حق العرب في الحياة ، فكانوا يصغون ، ويأخذون من كلامي ، بمقدار ما تسع أفهامهم وعقولهم .

وكنت يوماً أخوض في شيء من ذلك . فقام تلميذ صغير فقال :

ـ أستاذ . متى نستقل ؟ وصاح آخر :

ـ أستاذ . أما صرنا مستقلين ؟

لقد أحسست لما سمعت هذا السؤال ، كأن دلو ماء سخن قد صب على رأسي ، لقد اضطربت وحرت كيف أجاوب ؟ . هل أفاجئ هذا الطفل بالحقيقة المرة ؟ هل أقول إننا لم نستقل ؟ وأن الاستقلال بعيد عنا . ما هو ذنب هذ الطفل الطاهر حتى أسيء إليه في أجمل فكرة يحملها وأحلى أمنية يحلم بها .

لا . لن أقول له الحقيقة فأسوءه ، ولن أكذب عليه لأسرّه ، فسكتّ ، ولم أقل شيئاً .

ولكن الدمعة قد لاحت في عيني .

ومرت أيام وليال . والحوادث قائمة على قدم وساق (وأطفال دمشق) يقابلون بالحجارة والعصي ، دبابات فرنسا الدولة القوية المعظمة . ونحن ، نحن

رجال الفكر ، نشهد بطولة رجال العمل . وعبقرية أطفال الشعب صامتين معجبين . ولكن أملنا لم يكن قوياً .

وفتحت عيني ذات يوم فجأة فإذا في الجبهة شيء جديد : إن الشعب يسير في (طريق الحرية) ، إن الإضراب الذي كان احتجاجاً على اعتقال (فخري البارودي) ، والمظاهرات التي قامت لأجله ، قد أخذت معنى آخر . لقد صار (فخري البارودي) فكرة . لقد صار رمزاً للاستقلال :

إن الشعب لا يريد إلا الاستقلال .

عقد الشعب النية على العمل ، لقد كان ضعيفاً ، ولكنه كان قوياً بضعفه لأنه مؤمن . لقد كان قليلاً ، ولكنه كان كثيراً بقلته لأنه متحد . لقد كان يريد الموت . ولكنه لم يمت ، لأن الموت لا يأتي من يريده ، بل يلحق من يفر منه .

كان الشعب يناضل نضال المستميت ، أفما رأيت الهرة إذا ضويقت كيف تنقلب لبؤة ؟ أما رأيت الدجاجة إذا هاجم الباشق أفراخها كيف تنقلب نسراً ؟

كذلك كان الشعب .

رأيت ذلك ، فذهبت إلى المدرسة ، فقلت للتلميذ الذي سألني متى نستقل ؟

ـ إنا سنستقل قريباً .

يالسر القدر ! لقد عمل القدر عمله ، لقد ظهرت الخوارق ، إن الأشخاص الذين (سرقوا) من بيوتهم ، وأخذوا إلى المنفى كما يؤخذ المتهمون . قد عادوا إلى دمشق عودة البطل الفاتح ، أستغفر الله . أي بطل ؟ وأي فاتح ؟ ما رأى الناس مثل استقبال فخري البارودي وجميل مردم[1] وأصحابهم . إنني أجل هذا اليوم أن

(١) هذا كلام قيل من نحو ربع قرن . وقد سجلته في الكتاب لأني أسجله للتاريخ ، والتاريخ لا يتبدل ، لا أسجله لأكرم به أشخاصاً من الناس فالناس يتبدلون . والعبرة بالخواتيم . نسأل الله حسن الخاتمة .

أصفه لئلا أذهب بجلاله ، فليحفظه الآباء في صدورهم ، وليمسكوه في قلوبهم ؛ ليقدموه إلى أبنائهم وأحفادهم ، هدية حلوة ، وصورة فخمة ، تتجلى فيها (عظمة الوطن) !

رأيت ذلك ، وأبصرت فرق الشباب الحديدي ، فأسرعت إلى المدرسة ، فناديت الذي سألني هل صرنا مستقلين . وقلت له :

ـ ياعدنان ! لقد استقل وطنك !

ولقد كان ذلك . فكتبت المعاهدة ، الصفحة الأولى ، من تاريخنا الجديد . وهذه الصفحة التي تقرؤونها في الكتاب الذي أخبرني الشاب العامل القوي ، السيد أنور العش ، أنه سيؤلفه ، وسألني أن أكتب له مقدمته .

هذا هو الجزء الثاني من كتاب (في طريق الحرية) ، ولقد وفق أنور في هذا الاسم كل التوفيق ، فإن الطريق لم ينته بعد ، وإنه طريق طويل وعر ، فيه شوك ووحل ومخاوف ، فعلينا أن نسير فيه .

لا . لست متشائماً . ولم أقل : إننا لم نأخذ شيئاً ، ولكني لست عاجزاً أيضاً ، ولاأنا مصاب بقصر البصر ، إن لنا معاشر العرب مطمحاً بعيداً ، إن لنا آمالاً ، إننا أبناء المجد ، أحفاد الملوك سلائل العظماء ، ولم نولد أمس ، ولانحن من حثالة الشعوب .

نعم ياإخواني . يجب أن تعرفوا من أنتم . أنتم المتفضلون على العالم كله . إن لكم في عنق أوربة ديناً ، قد أخذتم منه قسماً ؛ ولم تأخذوا صدقة ، إن الحرية والحياة والمجد حق لكم . لقد قامت في الأرض ثلاث حضارات عالمية ، ثلاث فقط : الحضارة اليونانية ، والحضارة العربية ، والحضارة الغربية ، لقد بنى اليونان الطبقة الأولى من هذا البناء ، وبنينا نحن الطبقة الثانية ، وبنت أوربا

الطبقة الثالثة ، لقد زادوا علينا (في باب الماديات) وارتفعوا . ولكن نحن أنشأنا الأساس . نحن أصحاب الدار . لسنا متطفلين ولا لصوصاً ولا سائلين .

تعلموا ياإخواني . واقرؤوا تاريخكم ، لتعرفوا أنفسكم ، يجب أن يقرأ التاريخ العربي في المدارس مفصلاً ، لا كما يقرأ الآن ، يجب أن يكون في كل بيت من البيوت كتاب تاريخ ، يقرأ صباح مساء ، هكذا تفعل الشعوب الحية ، هكذا تصنع الأمم القوية .

وبعد ، ياإخواني القراء ، خذوا قصة جهادكم ، فاقرؤوها في هذا الكتاب ، لا لتعيدوها وتكرروها حتى تنعسوا من التكرار ، ولا لتفخروا بها حتى تتعب ألسنتكم من الفخر ، ولكن لتفكروا في إنشاء قصة جديدة . إن الماضي الفخم ، لا يكون قيماً إلا إذا صنع المستقبل الفخم ، وإلا كان لهواً وعبثاً ، ومافائدة السجين من ذكر أيام الحرية ؟ والفقير من أيام الغنى ؟ إذا لم يفكر في إعادتها واسترجاعها . وماذا تغني عنا عظمة الأجداد ، إذا لم نكن نحن أيضاً عظماء .

ياإخواني القراء . إنه لاشك أنكم قطعتم من (طريق الحرية) شوطاً بعيداً ، ومرحلة واسعة ؛ ولكنا لانزال في الطريق ، والطريق طويل وعر ، فيه شوك ووحل ومخاوف .. فالإخلاص الإخلاص ، الاتحاد الاتحاد ، العلم العلم ، العمل العمل .. هذه هي أركان النجاح .

☆ ☆ ☆

ياتلميذي العزيز ، ياعدنان[1] :

ـ إننا قد صرنا مستقلين ، فاحمد الله ، واهتف للزعماء المخلصين المجاهدين . وابتهج وافرح ، ولكن لاتنم ، إن النائم لا يكون مستقلاً ، والمستقل لا يكون نائماً .

(١) صار اليوم المحامي البارع الأستاذ عدنان الجاجة .

كارثة دمشق

نشرت سنة ١٩٤١ م

- ١ -

عادت إلينا الرسالة بعد طول الغياب فيا أهلاً بها نجّية النفس وسميرة الفؤاد ، ويامرحباً بمعادها ، وياليتها تعود معها تلك العهود ، حين كانت أقلامنا تجري فيها طليقة من القيود ، لم تصبغ بالدم ، ولم تجعل مدادها من سواد البارود . وياليت أني حين أكتب اليوم أقدر على اجتناب أحاديث الكوارث والهموم ، فلا أقص على القراء أخبارها ، وأصف آثارها ، فأزيدهم كرباً على كربهم . وحسب الرجل اليوم همه ، ومابلد إلا وفيه مايغمه . وماتجمل بنا الشكوى ، لولا أنها إلى أخ حبيب ، ومن للأخ في الضيق غير أخيه ، ومن للشام إلا مصر والعراق ، ومن لمصر إلا العراق والشام ، ومن تجمعه بها أخوة الجِذْم واللسان والإسلام ، وكيف السكوت وماحل بدمشق ينطق بوصف هوله الجماد لو كان ينطق الجماد ، وتفيض له أعين الصخر ، لو بكى الصخر لذي مصاب .

- ٢ -

كنا نذكر الحرب التي مضت وماحملت إلينا من الجوع والخوف والنقص في الأموال والأنفس والثمرات ، وكيف كان الشعب يموت جوعاً لأن التجار الفجار قد احتكروا خبزه ، فذهب من الناس من ذهب ، لتمتلىء صناديق المحتكرين بالذهب ، ثم لا يجد الأموات قبراً لأن الحرب لم تبق من الرجال من يقدر على حفر قبر . نذكر هذا كله ثم ننظر إلى هذه الحرب فنراها سلاماً علينا وأمناً ، لم نجع فيها ولم نعر ، ولم تنل منا منالاً ، اللهم إلا مانالت بأظافر التجار وأنيابهم ،

إذ جعلوا الواحد من ثمن الأشياء عشراً ، وربما بلغوا ببعض الأثمان مئة ضعف . وماقلّت السلع ولاتبدلت ، ولكنه الطمع والجشع ورقة الدين وضعف الخلق !

واستمر مرير الحرب ، وانتشرت نارها ونحن لا نعرف مكانها إلا على السماع ، وجعلت تطيف بلهبها بنا ، وتدنو منا ، فامتد لسانها إلى مصر فجزعنا وأشفقنا وكنا مع المصريين بقلوبنا وألسنتنا ، ومانملك لعمري إلا الألسنة والقلوب ، ثم دنت منا فبلغ لهيبها العراق ، فأقبلنا على العراق بقلوبنا وماجانبت مصرَ ولاتولت عنها تلك القلوب ، ثم أصبحنا ذات يوم على صوت الرادّ (الراديو) يقول : إن الحرب في (الكسوة) على أبواب دمشق ، فنظرنا شطر القبلة فلم نجد على جبل (المانع) أثراً لحرب ، فكذبنا وأنكرنا ، فقال العارفون إن المعركة وراء هذه الجبال . وأكدوا ذلك ولكنا لبثنا مكذبين ، فلم تكن إلا ليال حتى بدت في الأفق القبلي من دمشق ومضات المدافع وسمعنا أصواتها فصدقنا ماقال الرادّ ، وأيقنا أن قد بلغتنا الحرب ، ولكنا لم نكبرها ولم يصبنا الذعر منها ، إذ لم تمسسنا نارها ، ولاأحسسنا أوارها ، ثم دنت منا النار ، وانطلقت المدافع الثقال من قلاع (المزة) و(قاسيون) ، فاهتزت لها دمشق ولكن أفئدة أهلها لم تهتز ، فانطلقوا يؤمون (المهاجرين) يشرفون منها على المعركة وهي دانية منهم وأصواتها في آذانهم ، وشظاياها عن أيمانهم وشمائلهم . وإنهم لفي إشرافهم هذا ، واجتماعهم في المهاجرين ،عشية يوم الجمعة ٢٠ يونية ، يتحدثون في عرض الجيش المهاجم على المقاتلين في دمشق كفّ أذاهم عنها ، وتركها (مكشوفة) كيلا تعبث بمحاسنها أيدي الحرب ، فتجعل عامرها يباتاً ، وقصورها تلالاً ، وكيف أبى المقاتلون فعرضوا دمشق بإبائهم للأذى ؛ وما يعنيهم أذاها ، ولا تهدم لهم (إذا هي تخربت) دار ، ولا يفجعون في زوج ولا ولد ! وكانت المعركة مشتدة هذه العشية ، وكان الناس مزدحمين ينظرون ، وإذا بجهنم قد فتحت أبوابها ، وإذا القنابل قد ضلت طريقها فإذا هي تسّاقط على (المهاجرين) أجمل أحياء دمشق وأبهاها ، فطار

الفزع بألباب الناس ، وكانت ساعة الهول التي يستعاذ بالله منها ، وصار الناس كحالهم يوم القيامة ، حين يجد المرء ما يشغله عن أخيه وزوجه وبنيه ؛ فخلفوا الدور مفتحة الأبواب ، واستلموا منافذ الطرق ، مهاجرين إلى (الشام)[1] يعتصمون بالأمويّ ، ويقيمون في جواره بعيدين عن مواقع القنابل التي تحمل الموت والدمار . فلاترى على الطرق إلا الناس مسرعين بوجوه شاحبة ، وأعضاء من الخوف مضطربة . وربما خرجت المسلمة المخدرة مكشوفة الوجه ، والمدافع تنطلق ، والقنابل تتالى وتتعاقب ؛ كالغيث إذا انهمر . وكان أمرٌ لا يوصف .

- ٣ -

ثم انسحب جيش ، ودخل دمشق جيش ، وأعلن استقلال سورية ، وانتهت الحرب ، فتنفس الناس الصعداء وتذوقوا لذة الأمن بعد الخوف ، ومن كان لجأ من الخوف إلى دمشق من سكان القرى المرزّأة المروعة الذين أكلت الحرب دورهم وغلاتهم ، سكان : (الكسوة ، والباردة ، والأشرفية ، وصحنايا ، وسبينة ، وسبينات ، والقدم ، وغيرها) من قرى الغوطة التي كانت تنعم بالأنس والدعة في ظلال الأشجار ، فصارت صحراء قاحلة ، لا شجرة فيها ولا دار . وداريا قرية العنب الديراني الذي تباهي دمشق المدن بلونه وطعمه ونبل حبته وجلال عناقيده واتساع كرومه ؛ وجارتها المزة (جيزة دمشق) وأجمل ضواحيها ، استعدوا للرحيل إلى دورهم ومساكنهم . يحسب المساكين أنها لا تزال لهم مساكن ، مادروا أن من هذه القرى مالم يبق منه إلا أطلال ورسوم . وانطلق الدمشقيون الذين واسوهم في مصيبتهم ، وآووهم في منازلهم يودعونهم بالحفلات والولائم . فاشتعلت الأحياء التي تحف بالأموي نوراً ، وابتسمت سروراً : (القيمرية

---

(١) الشام في الأصل ما يسمى سورية ، وفي عرف الدمشقيين دمشق . والقسم القديم منها على التخصيص دون الصالحية والميدان .
كما أن مصر عند أهلها القاهرة وحدها ، أو الجزء القديم منها .

والكلاسة ، وباب السلام وباب البريد ، وسيدي عامود) ، حتى ليحسبها الرائي ترقص طرباً ، ومـا بهـا لـو حققت من طرب . وفيم الطرب ؟ ولكن مواساة للمنكوبين ، وتطييباً لقلوبهم ، وإظهاراً للرضا بانطفاء نار الحرب ، وحمداً لله على مالطف وسلم ، فكانت ليلة الأربعاء (٢٥ يونية) ، كأنها من ليالي الأعياد .

وكان أسبق الأحياء في هذا المضار (الكلاسة) ، هذا الحي الرابض بين الحرمين الأقدسين : مسجد بني أمية الجامع ، ومدفن البطل صلاح الدين (آخذ الدنيا ومعطيها) ، كأنما سرى في أهله رَوْح من رُوح صلاح الدين ، فظهرت على أيدي أهله مدهشات الشهامة والكرم ، حتى لقد آوى رجل منهم واحد سبع أسر في داره ، وأولاهم من بشاشة وجهه وفضل ماله ومسكنه مالا يمتد إلى أكثر منه جهد مثله .

- ٤ -

نام الناس هذه الليلة التي حسبوها من ليالي الأعياد مطمئنين لا يخافون الحرب وقد انطفأت نارها ، ينتظرون بآمالهم الغد القريب ليحمل إليهم السلام والرخاء ، فلما كانت الساعة الرابعة (إلا ربعاً) ، ومآذن دمشق المئة والسبعون تصدح (بالتراحيم) الأخيرة ، ولم يبق دون الفجر إلا قليل ، والليل ساكن سكون السحر الفاتن العميق . وإذا برجة لا توصف قلقلت البيوت فذهبت بها وجاءت كأنها الزلزال العظيم ، لولا أنها اقترنت بصوت أفاق منه الناس وإن أجلدهم ليضطرب في فراشه اضطراب السمكة خرجت من الماء ، ثم أعقبتها رجتان ، ثم جاءت رجة أنست الناس الأوليات فحاذروا وهبت المفاجأة بألباب ذوي اللب منهم وخرجوا من بيوتهم يتراكضون ، وما لأحدهم وجهة ولا مقصد . ثم انجلت الحال ، فإذا هي طيارة لا يدري أحد موردها ولا مصدرها . ألقت قنبلتها الأولى على أكواخ في مزرعة عند (جسر تورا) فيها ثلاث أسر ، في كل أسرة منها

أكثر من عشرة أشخاص ، فأبادت الجميع ، وماثمة مطار ولا ثكنة ولا شيء مما يصح أن يكون لقنابل الطائرات هدفاً ؛ وألقت الثانية على (باب السلام) من أسفل (الجزيرة) فهدمت أربع عشرة داراً (لاشقة) والثالثة وقعت على الكلاسة فأبادت الحي كله ؛ ولو زاحت عن موقعها عشرة أمتار من هنا أو هناك ، لطارت بمأذنة العروس أو بقبر صلاح الدين ، ورميت الأخيرة في الحي الجديد في (سيدي عامود) ، الذي لم يكد يبنى بعد خرابه ، حتى حَمل إليه الدمار في الثانية من حَمله إليه في الأولى وما في كل مادمرت الطائرة ولا في جواره ولا قريباً منه شيء من المصانع والمواقع العسكرية البتة .

وقع ذلك كله في أقل من خمسين ثانية ، لم يمتد إلا ريثما اجتازت الطيارة من أول المدينة القديمة إلى آخرها ، ثم توارت في الظلام كما خرجت من الظلام .

- ٥ -

أسرعت مع من أسرع إلى مطرح القنابل وبدأت من (سيدي عامود) ، فإذا القنبلة قد سقطت في وسط الطريق في ميدان صغير يتقاطع فيه شارعان ، فاحتفرت حفرة هائلة وتطايرت قطعها وشظاياها ، فأصابت أربع عمارات جديدة مترعة بالسلع التجارية القيمة فضعضعتها وهدت أركانها وأدخلت بعضها في بعض ، وأبادت كل ما كان فيها من سلعة ومتاع وأفقرت أسراً الله أعلم بعددها . وحطمت القنبلة كل زجاج الحي ، وقتلت رجلاً وامرأتين ، وذهبت من بعد إلى (الكلاسة) فإذا هذا الحي الآمن بأمان المسجد ، القائم في حمى صلاح الدين ، قد غدا تلاً واحداً كالقبر العظيم كأنه لم يكن منذ ساعات يبسم للحياة ويبسم له المجد ، وكأنه لم يكن منزل الكرام الصيد المحسنين . وكان الناس مزدحمين يعملون مَساحِيهَم في هذه الأنقاض فيكشفون عما تتفطر لهوله القلوب ويلقون من غرائب الحياة ومآسيها ما يخجل أكبر القصاص ويدفعه إلى حطم القلب ، والنساء

يولولن يسألن عن زوج ضائع أو ولد مفقود ، ويقعن على أرجل الكشافة والفعلة وأصحاب المساحي ، يسألنهم الإسراع بالكشف عمن افتقدن من أقربائهن ، ومنهن من تقبل على التراب تنبش بيديها وهي تعد الدقائق والثواني تتصور الموت جاثماً على صدر من تحب ؛ فإذا رأت أنها لم تصل إلى شيء وهالها الأمر ، جن جنونها فأقبلت تلطم وجهها وتشد شعرها . والرجال ، لم يكن الرجال بأجلد من النساء .

وكيف يتجلد الرجل ويصبر ، وحبيبه تحت الأنقاض وكلما مرت لحظة دنا من الموت باعاً ، كيف يصبر وهو يظن أن في يده حياته ، وكيف يعيش من بعده إذا توهم أنه هو الذي قتله بتقاعسه عن إسعافه ؟

إن الذي رأيت في الكلاسة من الفواجع والمآسي لا يقدر على وصفه لسان ولا قلم ، والحفارون خلال ذلك يخرجون جثة من هنا وجثة من هناك ، فينادون عليها ليعرفها من يعرفها . ولقد وجدوا جثثاً مشوهة لم يعرف أصحابها ، ووجدوا ساعداً مبتوراً لم يدر من صاحبه . وهذه امرأة حديثها عجب من العجب؛ فقد كانت تنام بين ولديها ، فلما سمعت الرجفة نهضت وكل عرق منها يرتجف ، كأنه ريشة في مهب الريح ، فوجدت الظلام من حولها دامساً طامساً ، فمدت يديها تتلمس ولديها فوقعت على الرضيع ولم تقع على الآخر ، فتحسست مكانه فإذا يدها على جذع من الخشب وسط تراب منهار ، فنهضت كالمجنونة فاصطدم رأسها بشيء قريب حسبته السقف فازداد جنونها ولم تدر أهي في يقظة أم في حلم ، فأخذت بيد ابنتها التي ما ينقطع بكاؤها وقبعت في فراغ وجدته . وكان ينتهي إلى سمعها صدى طرقات بعيدة كأنها آتية من قرارة سبع آبار ، ثم رأت حين ألفت عينها الظلمة ، كأنما هي في مغارة من مغارات الجن لا باب لها ولا كوة ، ثم إنها من ضيقها كالقفص ، فأقبلت تضرب بيديها ورأسها والتراب يتساقط عليها حتى وجدت بصيصاً من النور ، وازداد صوت الطرق وضوحاً في أذنيها ،

وتسرب إليها الهواء بعد أن كادت تختنق ، فأغمي عليها ولم تفق إلا في المستشفى ورضيعها إلى جنبها ، وولدها الآخر وزوجها تحت الأنقاض .

وهذا هو الأستاذ المصور (أكرم ...) يفتش عن ولده الحبيب ، وقد جحظت عيناه من الذعر ، وتبدلت حاله ، وصار لون خديه كقشرة الليمون ، وهو يستحث الحفارين ويضرب بيديه التراب . هنا ابنه : ولده الحبيب يا أيها الآباء ، جاء به من المهاجرين يوم الروع ليودعه المكان الآمن عند جدار المسجد ، عند قبر صلاح الدين . ومرت ثلاث ساعات كانت عليه وعلى المشاهدين كأنها ثلاثة عصور ثم انكشف الردم عن نصف غرفة ، وإذا الولد فيها وهو حي ، لكن ذراعه تحت الردم ، وهو يصرخ : أبي ارفعني ارفعني يا أبي . فلما سمع الأب صوته وثب إليه يعانقه وهو يبكي ، وكل عين ثمة تبكي ... ولكن كيف يرفعه وفوق ذراعه تلّ تراب ؟ وأقبلوا ينقلون التراب والولد يصيح صياحاً جعل أباه يفكر بإنقاذه ولو بقطع يده ، أسمعتم ؟ . وإنهم لفي ذلك وإذا بجذع يهوي على رأس الصبي فيقتله حالاً .

وها هنا طفل رضيع يجدونه حياً يمتص من ثدي أمه الميتة . حقائق لو كانت خيالاً لكانت من أغرب الخيال .

ولما انصرفت من (الكلاسة) أخذ بيدي صديق لي وأنا لا أبصر من الأسى والحزن طريقي فقال : إن ما رأيت ليس بشيء . إن أحببت أن تنظر إلى أفظع عدوان وأشقى ضحية وأروع مشهد ، فتعال معي إلى باب السلام ، فلقد أخرج منه إلى الآن (الضحى) سبعة وعشرون قتيلاً فنترت يدي منه ولم أجب .

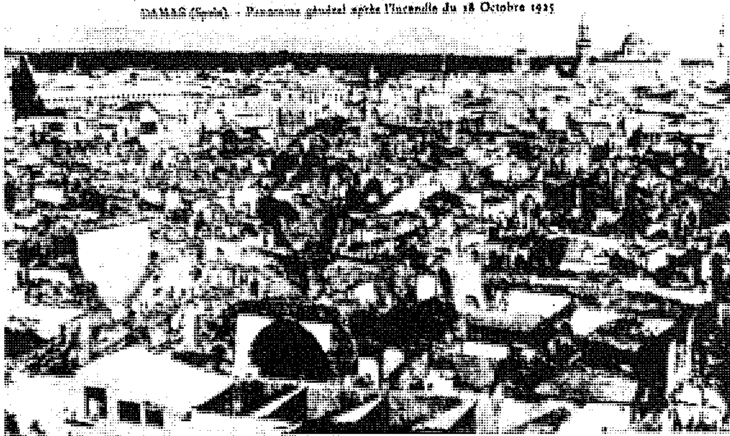
- ٦ -

وانجلت الغارة عن ثمانية وعشرين منزلاً أضحت خرائب وتلالاً وواحد وسبعين قتيلاً . ثلاثة أرباعهم من النساء والأطفال ، ونحو من خمسين جريحاً

لا يكاد يعيش منهم أحد ، ما قتل هؤلاء في المعركة الحمراء ، ولا سالت نفوسهم على ظبى الأسنة ، وشفرات السيوف . ولو واجههم العدو في حومة الوغى لوجدهم فرسانها وسادتها ، ولكنه أخذهم غدراً ، وعدا عليهم وهم آمنون في فرشهم ، فأخذ الرجل من جنب زوجته وولده ، أو قتلهم جميعاً لم يتورع عن قتل النساء ، ولا عن ذبح الذراري ، ولم يكسر عليهم الأبواب ويدخل دخول الغاصب القوي ؛ ولكنه مر في السدفة الحالكة مرور اللص الجبان ، فراغ عن مواطن الجندية ومنازل الكماة لأنه ليس من أكفائهم ، وتخير هذه البقع الآمنة حول بيت الله فصب عليها كل ما في النفوس الشريرة من خسة ودناءة ، ولعله أراد بنيرانه بيت الله ، أو لعله أراد بها قبر السيد الذي علم قومه كيف يكون النبل .

فيا رحمة الله على النبل وأهله ، وسلام على هذه الأرواح الطاهرة ، وعلى الظالمين لعنة الله .

☆ ☆ ☆



دموع ودموع

نشرت سنة ١٩٤٥ م

كنت تلميذاً في الصف الأدنى من المدرسة الثانوية ، وكان لي رفاق لهم على حداثة أسنانهم قلوب فيها إيمان ، وفيها حماسة وفيها وطنية ، وكنا نحن وقد ولى حكم الأتراك ، وغاب عنا شبح الذعر والهول : جمال باشا . واختفت المشانق ، وبطل الهمس والتلفت كلما ذكر هذا الاسم المرعب ، وجاء الشريف فيصل ، وجاءت معه الأفراح ، وقامت الأعراس ، ودقت طبول البشائر . كنا نحس أننا نعيش في دنيا الأحلام ، في أيام كلها أعياد ، وكنا إذ نجول كل خميس في المدينة ننشد (مرسلييز العرب) :

أيها المولى العظيم فخر كل العرب
ملكك الملك الفخيم ملك جدك النبي

فيردده معنا التجار في دكاكينهم ، والباعة من وراء دوابهم ، والمارة في دروبهم ، وترده منازل دمشق ودورها ، ومساجدها وقصورها ، وقلعتها وسورها ، وترده الأرض والسماء ... أو هكذا كان يخيل إلينا ، فيشد هذا الخيال من عزائمنا ، فننتفخ ونتطاول ، ونمد أصواتنا ونقويها لنشعر أنفسنا أننا صرنا رجالاً ، وصرنا جنداً كالرجال الذين كنا نراهم يصرخون في المظاهرات ، ويلوحون بالسيوف والبنادق ، ويطلقون النار من مسدساتهم ، كلما أخذت منهم الحماسة ، وهزهم الطرب ، بعد أن مضت علينا أيام ما كنا نرى فيها في دمشق رجلاً إلا فاراً من الجيش مختبئاً يمشي مشية المذعور ، يخاف أن يلمحه رسول الموت

(أبو لبادة) فيقول له الكلمة التي حفظناها ، ونحن صغار لا ندري معناها ، ولكننا ندري أنها كانت تخيف وترعب ، ويصفر منها الوجه ، وترتجف الأضلاع ، كلمة : (نَرْدَهْ وثيقة)[1] ؟



وإنا لسادرون في أفراحنا ، ممعنون في مسراتنا ، مزهوون باستقلالنا ، وإذا بنا نسمع الصريخ يصرخ في الحمى ، ونرى الخطباء يقومون في الأسواق ينذرون الناس خطباً داهماً ، وشراً مقبلاً ، ولم ندر نحن الفتية الصغار ماذا جرى ؛ فسألنا : هل عاد جمال باشا ؟ هل رجعت مشانقه ؟ قالوا : لا ، جاء ما هو شر منه وأمر ، (غورو) ، قلنا : وما غورو ؟ قالوا : الأعور . فاعتقدنا أنه الأعور الدجال الذي يظهر في آخر الزمان !

ورأينا الدنيا تقوم وتقعد ، ففي كل مكان حشد ، وعلى كل منبر خطيب ، وعجت الشوارع بالناس ، ولم نكن نفهم ما يجري من حولنا ، وإن كنا نسعى في أعقاب الناس متسائلين مشاركين ما استطعنا ، ثم رأينا الجموع تمضي إلى النادي العربي .

النادي العربي الذي كان مثوى الوطنية ، وكان لنا نحن الصغار المنار الهادي ، من خطبه تعلمنا الخطب ، ومن بيانه قبسنا البيان ، ومن رجاله عرفنا الرجال ، هذا النادي الذي خان أهله عهده ، وهدروا مجده ، وقعدوا به بعد العز ، ونسوه بعد أن كان هو الذي يذكرهم أوطانهم ، فغدا ويا خجلتاه حانة ، أو شيئاً يشبه الحانة ، يقال له شهرزاد !

مضت الجموع إلى النادي يموج بعضها في بعض ، ومضينا نتبعهم ، حتى إذا

---

(١) أين الوثيقة ؟

وقفوا أطل عليهم من شرفته أخطب خطيب عرفته ، وأطلقه لساناً ، وأشرفه بياناً ، وأشده على القلوب سلطاناً ، شيخنا وأستاذنا الشيخ عبد الرحمن سلام البيروتي الشاعر الفقيه رحمه الله وسيّر في الناس طيّبةً ذكراه ، أطل على بحر من البشر يزخر بأقوام برزوا للموت ، يدفعون المغير عن الحمى ، ويحمون الذمار ، فامتلأ بهم ما بين المستشفى العسكري ، ومحطة الحجاز ، وميدان الشهداء ، وحديقة الأمة ، ولم يبق في تلك الرحاب كلها موطىء قدم ، أطل فلما رأى الناس استعبر وبكى ، وخطب خطبة إذا قلت قد زلزلت القلوب أكون قد أقللت ، وإن قلت ألهبت النفوس لا أكون قد بلغت ، خطبة لو كانت بلاغة بشر معجزة لكانت من معجزات البلاغة ، خطبة ما سمعت مثلها ، وقد سمعت ملوك القول ، وفرسان المنابر ، حملتني هذه الخطبة إلى آفاق المستقبل ، فنسيت أني تلميذ صغير ، ورأيتني رجلاً ، ثم صبت البطولة في أعصابي ، فأحسست أني كفؤ (لغورو) ، وجيشه العادي ، أرده وحدي ، وكبرت في نفسي حتى صغر هذا الأعور الدجال ، الذي خافوه وخوفونا منه ؛ فلم يعد شيئاً . وإني لا أزال أحفظ منها قوله عليه رحمة الله وقد سكت لحظة وهو يخطب ، وسكت الناس حتى لو أنك ألقيت إبرة على بساط لسمعت لها صوتاً ، ثم ولى وجهه تلقاء المغرب ، وصرخ من قلبه الكبير صرخة لا تزال إلى اليوم تدوي في مسمعي : « غورو ! لن تدخلها إلا على هذه الأجساد » ، وأعقبتها صرخة أخرى ، تقلقل لها الفلك ، ورجف الكون ، تكبيرة واحدة انبعثت من أربعين ألف حنجرة مؤمنة !

ومضى الناس قدماً إلى ميسلون !

أما نحن فمضينا إلى بيوتنا ، فما كان فينا من بلغ سن القتال .

☆ ☆ ☆

ولم يكن إلا يوم وبعض يوم حتى رأينا الدنيا تتبدل غير الدنيا وأبصرنا كل شيء قد تغير وإذا الناس في جمود كأنهم في مأتم ، وإذا الخطباء الذين كانوا ملء

الأسماع والأبصار قد اختفوا ، وإذا الأعلام ذوات الألوان الأربعة قد طويت ، وإذا فيصل الذي كنا نهتف باسمه ونعتز به ، ويشعر كل واحد منا أنه يملك فيه ملكاً إذ يكون له مَلكاً ، قد هرب وخلا منه قصره في (العفيف) ، فاحتله عدوه ، ونام فيه على فرشه ، واستوى على عرشه ، فحرنا وسألنا : ماذا جرى يا ويحكم حتى انهار الصرح في يوم واحد وضاع البشر ، وتبدلت الدنيا ، قالوا : اذهبوا لا تسألوا ، إننا خسرنا ، ورجعنا من (ميسلون) ، وقد خلفنا فيها استقلالنا الوليد ، وقائدنا الشهيد ، وصارت الغلبة لهذا العادي العاتي الذي اقتحم علينا البلد اقتحام الغاصب ، غورو ! قلنا : الأعور الدجال ؟ قالوا : اسكتوا ، اسكتوا ، لا يسمعكم أحد .

وذهبنا نستطلع الخبر ، فقادتنا الخطا إلى (الثكنة الحميدية) ، فوجدنا عندها جنداً غرباء عنا ، سوداً برابرة ، وسمراً مغاربة ، وشقراً فرنسيين ، وإذا هم يخفضون علمنا ، ويلقونه ، ويرفعون علماً فيه ثلاثة ألوان . وتلفت فإذا رجال منا واقفين ورائي ، ودموعهم تسيل على خدودهم في صمت وحرقة وألم خفي يأكل الأكباد ، وكان ذلك يوم ٢٤ تموز سنة ١٩٢٠ م ، وكانت تلك هي (الدموع) الأولى !



ومر ربع قرن ، خمس وعشرون سنة كاملة لا تنقص يوماً ولا تزيد يوماً ، حملنا فيها ألوان الأذى ، وذقنا فيها الموت من كل طبق ، وعلى كل خوان ، ورأينا النار تأكل دورنا ، والقنابل تهدم على رؤوسنا منازلنا ، فتهدمت بيوت من أبهى وأغلى وأحلى بيوت دمشق ، وقضى فتية من أجمل وأكمل وأنبل فتيتها ، وأبصرنا أياماً سوداً ، ومصائب شداداً ولكننا ما جَبُنّا ولا خفنا ، وكنا عزلاً أقلة ، وكانت قريعتنا فرنسا القوية العظيمة ذات الحول والطول ، فقارعنا فرنسا ولقينا بصدورنا الرصاص ، وهجمنا بالخناجر على الدبابات ، وقابلنا بالحجارة الرشاشات ، وصبرنا فانتصرنا .

وكان يـوم ٢٤ تمـوز سنـة ١٩٤٥ م ، ورأيت بعيني العلم ذا الألـوان الأربعـة يرتفع مرة ثـانيـة على (الثكنـة الحميـديـة) في دمشق ، ورأيت رجـالاً يبكون ، ولكنهم يبكون هذه المرة من الفرح ، وكانت تلك هي (الدموع) الأخرى

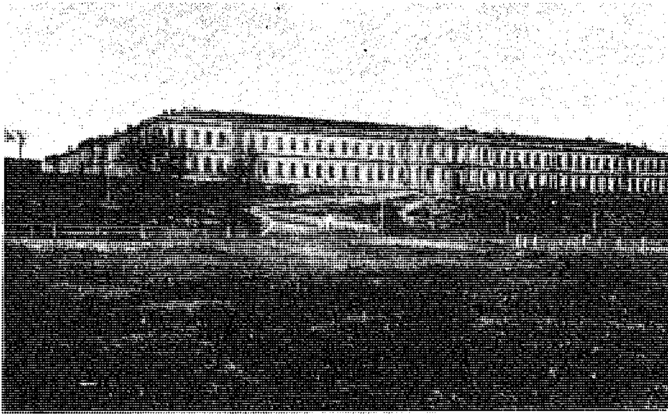
☆ ☆ ☆

اللهم لك الحمد فما أبالي بعد اليوم أن أموت ، لقـد أبصرت وطني حراً مستقلاً له راية ترفرف ، وعلم يخفق ، وجيش كان عليه فصار له ، وجند كانوا يحـاربونـه فصاروا يحمونه ، لقد غدوت الآن أقدر أن أقول مباهياً مفاخراً : إن لي وطناً .

اللهم علم قـومي كيف يحفظـون استقـلالهم ، وسـدد خطـاهم نحـو وحـدتهم ، وأعدهم إلى شريعتهم التي لا حياة لهم إلا بها .

اللهم وارحم أولئك الأبطال الذين سقوا بدمـائهم هـذه النبتـة الكريمـة حتى صارت دوحة ، شهـداء الاستقلال من لـدن يوسف العظمـة شهيـد ميسلون ، إلى حسن الخراط شهيد الغوطة ، إلى أخي ورفيق مدرستي شهيـد الواجب ، الطبيب مسلم البارودي ، الذي أقبل أمس يسعف الجرحى من أبناء الوطن ، فقتلـه أعـداء الوطن . رحمة الله على الجميع .

☆ ☆ ☆



الجلاء عن دمشق

- ١ -



﴿ مـا ظننتم أن يخرجـوا ، وظنـوا أنهم مـانعتهم حصونهم من الله ، فأتـاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقـذف في قلـوبهم الرعب يخربـون بيـوتهم بـأيـديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾

نشرت سنة ١٩٤٦ م

مـاذا في دمشق ؟ ففي كل ميـدان فيهـا عرس ، وفي كل حيّ فرح ، وفي كل شارع مهرجان . مـا هـذه الزحمـة ؟ مـا هـذه الوفود ؟ الطرقـات كلهـا مترعـات بـالنـاس مـا فيهـا موطىء قـدم ، وحيثما سرت تر قبـابـاً من الـزهر وستـائر من الحرير ، وعلى دمشق سماء من صغار الأعلام ومصـابيح الكهربـاء ، قـد انتظمتهـا حبـال فـدارت بهـا ، ثم انعقـدت على أشكال العقـود والتيجـان ، فكانت منظراً عجبـاً ، إذا رأيتهـا في الليل حسبت السماء قـد ركبت فيهـا ، فسطعت كـواكبهـا ولألأت نجومها ، وإذا أبصرتها في النهار ظننت الربيع قد عـاد مرة ثـانيـة ، فكان كل شارع روضة فتـانـة ، ضرب فيهـا موعـد حب ، وكل بنـاء عريشـة ورد وفل ويـاسمين ... وأغلى الطنـافس مبسوطـات على الجـدران ، وأحلى الصور معلقـات على الطنـافس ، والسيوف المـذهبـة والتحف الغـاليـة . مـا يضن النـاس بقيم ولا يبخلون بثمين .

والرايـات : السـوريـة والمصريـة والعربيـة السعـوديـة والعراقيـة واليمانيـة والأردنية . ـ أستغفر الله العظيم ـ بل هي راية واحدة اتحدت حقيقتهـا وتعـددت

ألوانها ، لأمة واحدة اختلفت أزياؤها وتناءت أوطانها ، فألفت بينها قبلتها وأدناها قرآنها . أمة آخى الله بين أفرادها من فوق سبع سماوات ، فأراد الظالمون تفريقها بخشبات ينصبونها على الطرقات ، يسمونها حدوداً ، خسئ الظالمون وخابوا ، إن بناء تقيمه يد الله لا تهدمه خشبة نخرة ولا خرقة مرقعة ، ولا نحلة ضالة يدعو إليها حمقى جاهلون .

لقد أوقد الليلة في دمشق خمسمئة ألف مصباح ، ونشر فيها ألف ألف علم ، عدت عداً ، ورفع فيها مئة قبة من النور يعدو تحت إحداها الفارس من سعتها ، ووضع في أرجائها مئة مذيع مصوت ، يخرج منه النداء والهتاف والخطاب فيسمع في أقصى الغوطة ويردد صداه الجلمود من قاسيون ، ومشت فيها خمسة آلاف (عراضة)[١] وموكب ، وأقيمت ألف (دَبْكة[٢]) ، ففي كل مكان ازدحام ، وعلى كل ثغر ابتسام ، وفي كل قلب فرحة ، وكل الناس مبتهج مسرور ، الرجال والنساء والشيوخ والأطفال ، والهتاف متصل ما ينقطع ، والنشيد دائب ما يسكت ، والخطب والمحاضرات والزغاريد[٣] والأغاني ، من المصوّتات[٤] والروادّ[٥] والحاكيات[٦] والأفواه ، والطبول تقرع ، والمدافع ترعد ، والطيارات تركض في السماء ، والسيارات تزحف على الأرض ، والصواريخ تنفجر في الجو فتساقط منها الأنوار أمطاراً ، والجيش يحمل مشاعله ينشد ويزمر ، يشارك الأمة في أفراحها ، وما عهدنا (هذا) الجيش يشاركنا في فرح ولا ترح ! ما عهدناه إلا عوناً للغاصب علينا ، ضاحكاً في مآتمنا عابساً في أفراحنا ، يدور بالمشاعل في

---

(١) موكب شعبي يتقدمه قوال يقول فيردد الناس مقاله .
(٢) رقص قروي له أغان خاصة وأبرع الناس فيه أهل لبنان .
(٣) هتاف النساء .
(٤) أردنا بها مكبرات الصوت .
(٥) جمع راد وهو الراديو ؛ لأنه يرد الصوت الذي خرج من المذياع .
(٦) أي الفوتوغرافات .

شوارع دمشق ، يذكّر بالجيش الإسلامي لما حمل القرآن مشعل النور الهادي فأضاء به الأرض وهدى أهلها . وعلى كل جبل من جبال دمشق نيران ضخمة أضرموها ، كما أضرمت من قبل نيران (الفتح) على جبال مكة إيذاناً بتطهير الكعبة وتهديم الأصنام ، و(إجلاء) الشرك عن البيت الحرام .

وفي كل دقيقة يفد على دمشق وفد جديد : مواكب وعراضات من كل بلد وقرية وناحية ، وقد لبسوا أحسن ثيابهم وجاؤوا يعرضون أمتع فنونهم ، وأعجب ألعابهم ، ويهتفون أجمل هتافاتهم ، فكأنه عيد الأولمب عند اليونان ، فمن صراع إلى دبكة إلى قفز إلى لعب بالسيف والترس ، إلى عدو بالخيل ، إلى تمثيل وغناء .

وهياكل ضخمة ، أعدها الشباب ، فوضعت على ظهور السيارات ، على أشكال القلاع والمدافع والمدرعات ، وشيء يمثل أيام العذاب ، ومراحل الجهاد من ميسلون إلى الجلاء ، فالعين رائية كل لون وشكل ، والأذن سامعة كل نغمة ولحن ، وفي كل فؤاد هزة طرب ، وعلى كل لسان صيغة حمد وكلمة ابتهاج ، والليل يتصرم وما تخلو الساحات ، ولا يفتر النشاط ، ولا يسكت الضجيج ، وما يفكر أحد بمنام ، فكأنما قد جن البلد .

فماذا في دمشق ؟ أي يوم هذا من أيامها ، عظمت أيام دمشق وكرمت وجلت .

ألا إنه يوم الفرحة الكبرى ، إنه اليوم الذي كان يتمنى كل شامي أن يراه ولا يبالي إذا رآه أن يموت من بعده . إنها الغاية التي سرنا إليها خمساً وعشرين سنة وتسعة أشهر ، نطأ الحراب ، ونخوض اللهب ، ونسبح في الدم ونتخطى الجثث ، وننشق البارود .

إنها الأمنية الكبرى التي كان يتمناها كل سوري ، وكل عربي وكل مسلم .

إنه يوم الجلاء .

لقد جُنت دمشق وحُق لها أن تجن ، فقد عاد الحبيب بعد طول الفراق ، وآب المسافر بعد مامتد الغياب وعانقت الأم وحيدها بعد ماظننت أن لالقاء ، وخرج الفرنسيون وزال الانتداب .



إنه يوم الجلاء ..

فياأيها الذين عادوا من ميسلون بقلوب كسيرة ، ونظروا إلى موكب الغاصب بعيون دامعة ، وحملوا الظلم بأعصاب صابرة ، وشاهدوا جبروت المحتل وطغيانه ووحشيته والعرش الذي أقاموه على دماء قلوبهم وعزائم سواعدهم هوى ، والبلاد التي برأها الله واحدة قسمت فجعلت دولاً . والوطني المخلص نفي أو سجن ، أو حكم عليه بالموت شنقاً والخائن الملعون قد أعطي الرتب والذهب .

ويا أيها الذين خرجوا على الظلم ، وعرضوا أرواحهم للموت ، على شعفات الصخر ، من جبال اللاذقية إلى جبل الدروز ، وعلى السهول الفيح ، من أعالي حلب إلى أداني حمص ، وعلى ثرى الجنات من أرض الغوطة ، لم يخشوا فرنسا إذ كانت تخشاها الدول ، ويرهب بأسها الأقوياء .

ويا أيها الذين نشؤوا في عهد الانتداب ، فرأوا في كل مدرسة مستشاراً فرنسياً هو الآمر الناهي ، والمدير[1] تمثال ، وفي كل وزارة مستشاراً هو الفاعل التارك ، والوزير صنم ، وفي كل قضاء مستشاراً هو الحاكم وهو المنفذ وهو الأمير ، وفي وسط المدن مراكز للعدو ،وعلى الجبال قلاعاً له قد وجهت مدافعها إلى البلد لتضرب أبناءه إذا طالبوا بحق أو أبوا ظلماً ، لا إلى الفضاء لترد عنه الأعداء ، وفي كل طريق جنداً من الفرنسيين والمغاربة والمسلمين ... والسنغاليين والشركس

(١) واسمه في مصر الناظر .

والأرمن و .. الدمشقيين الخائنين ، يلوحون بأسلحتهم في وجوه أهل البلد ، ويرمونهم بالشرر (في السلم) من نظراتهم ، وبالنار (في الثورات) من بنادقهم .

ويا أيها الشهداء الذين قضوا بنيران العدو الباغي ، في سبيل الله ثم في سبيل الحرية ، وهل تسمع أرواحكم دعائي ؟ ياأيها الشهداء .

ويامعشر العرب في قاص من الأرض ودان .

إنا نحمد الله إليكم ، تبارك اسمه ، وجل جلاله ، فقد أكمل نعمته ، وأتم منّته ، وأخرج الفرنسيين من الشام كله ، فلم يُبق منهم أحداً .

اذهبوا الآن إلى (المزة) وادخلوا القلعة ، وأموا الثكنة الحميدية ، فإنه لا يمنعكم حارس سنغالي وجهه يقطع الرزق ، ولا يردكم ضابط فرنسي ، ولا تحجزكم سلك ذات أشواك .. وسيروا في طريق الصالحية فادخلوا قصر (المفوض السامي) الذي كان يتنزل منه وحي الضلال على قلوب الخونة المارقين من طلاب الحكم وعشاق الكراسي ، فيكونون لربه عبيداً أذلة ، وعلى أبناء بلدهم فراعنة مستكبرين ، ولجوا قصر (المندوب) الذي كان ينصب منه (أمس) الموت الزؤام على من يدنو من حماه ، واسرحوا وامرحوا حيث شئتم ، فالبلاد بلادكم ، لا فرنسي ولا انكليزي ، ولا طلياني ولا روسي ، ولا أشقر ولا أسود .

ألا لا (مفوض سامي) اليوم ولا مندوب .

لقد ذهبوا جميعاً ، وماتركوا من جنات زرعوها ولا عيون ، ماتركوا إلا بيوتاً كانت عامرة فجعلها حكمهم خرائب . وجناناً صيروها مقابر ، وضمائر نفرٍ منا كانت نقية فدنسوها ، ذهبوا وما أورثونا خيراً قط .

☆ ☆ ☆

هذا قصر المفوض السامي الذي كان بالأمس يزعم أنه إله الأرض ، تعالى الله مامن إله غيره ، وكان كلما نزت برأسه نزوة من حماقة جعلها قانوناً ، وحمل الناس عليها بسنان البندقية وفم المدفع ، قوانين ينقض بعضها بعضاً ، ويلغي أواخرها الأوالي ، ولا يحصيها عالم ولا جاهل : (إن المفوض ، بناء وبناء .. يقرر تعديل الجملة الثانية من الفقرة الأخيرة من المادة ١٨ من القرار ١١٠٥ ل . ر) فلا يعرف جني ولاإنسي ، ماهذه الفقرة ، ولا ماهذه المادة ولا ماهذا القرار . لقد ذهب وأورثنا عشرة آلاف قرار مثل هذا . ذلك هو التشريع الفرنسي الذي يحسبه القردة المقلدون ، أفضل من شرع ربنا ، لأن عليه (الطابع الأوربي) .

هذا هو قصر المفوض الذي سرقه من فيصل ، فيافيصل ، ياأيها الملك ! ارفع رأسك مرة واحدة وانظر إنها لم تطل المدة . إن اللص قد طرد ، وإن الباغي قد دارت عليه الدوائر ، فمادافعت عنه جنوده ، ولاحمته حصونه ، ولاأغنت عنه مدافعه وطياراته . لقد جرب فينا أسباب الموت كلها فما صنعت شيئاً : لم تحرقنا ناره ، ولم يقتلنا حديده ، لأننا أمة لا (يمكن أن) تموت ، وأحرقته هو نار حماستنا ، وقتله حديد عزائمنا ، فولى عنا باللعنة ، كما دخل علينا باللعنة .



اليوم يوم الجلاء .

اليوم يبكي رجال (منا) كانوا يأكلون الطيبات ، وينامون على ريش النعام ، من بيع ضمائرهم للأجنبي على حين كان الناس ينامون على التراب ، ويأكلون الخبز اليابس .

اليوم يبكي رجال حملتهم الخيانة فوضعتهم على مقاعد العز في أبهاء الحكومة ، فصاروا من كبار الموظفين .

اليوم يبكي رجال كانت لهم في سجلات (الاستخبارات) أسماء فصاروا اليوم أيتاماً كالأجْراء[1] في المزبلة بعد ما مات الكلب .

ولكن الشعب كله يضحك اليوم ، وتضحك معه الدنيا . اليوم يضحك البلد بالزينات والأعلام ، ويضحك الليل بالأضواء والمشاعل ، وتضحك المنائر بالتكبير ، وتضحك الأرض والسماء .

اليوم يرى الشاميون الفرحة الكبرى التي تنقش ذكراها على قلوب الأطفال والشباب فلا تمحي أبداً ، وتكون لقلوب الكهول والشيوخ شباباً جديداً ، كما كانت الفجيعة في ميسلون شيخوخة مبكرة لهذه القلوب التي شابت من الهول قبل الأوان .



لقد نامت دمشق البارحة ملء جفونها من بعد ما صرمت تسعة آلاف وثلاثمئة وسبعاً وتسعين ليلة[2] وهي تنام مفزّعة الفؤاد ، مقسمة اللبّ ، تخشى أن تصيبها من الفرنسيين بادرة طيش ، أو نوبة لؤم تذهب بدار عامرة أو تضيع حقاً ظاهراً ، أو تريق دماً بريئاً ؛ وأغفت تحلم بالمجد والحرية ، وقد مرت عليها تلك الآلاف من الليالي ، لا تحلم فيها إلا بتهاويل الظلم والموت والخراب ، وتأنس بطيوف الأحبة من جند العرب في مصر والعراق والحجاز ونجد ، وقد زهت بهم دمشق أن قدموها ضيوفاً كراماً بل إخواناً وأصحابَ البلد ، وقد كانت تروّعها كلما نامت أشباح الأبالسة تتراءى في صور جند من الشقر أو السمر أو السود الفرنسيين والمغاربة[3] والسنغاليين ، وأمنت الأم على ولدها أن تتخطفه

---

(١) جمع جرو .

(٢) من يوم الاحتلال ٢٥ تموز يوليو سنة ١٩٢٠ م إلى يوم الجلاء ١٧ نيسان (إبريل) ١٩٤٦ م .

(٣) المغاربة من أكرم إخواننا علينا ، ولكن منهم ومنا خوارج علينا ضربوا بسيف عدونا ، وإنا لنلعن خوارجهم كما نلعن خوارجنا .

الشراكسة[1] والأرمن زبانية (كوله) فتلقيه في سجن عميق ، أو منفى سحيق ، أو تذيقه النكال والتعذيب ، لوشاية كاذبة ، أو تهمة باطلة ، أو طمعاً بفدية أو مال ، واطمأن السكان على منازلهم أن تدمرها في هدأة الليل قنابل الطغاة أو تحرقها نارهم أو تسرقها أيديهم ! لقد نامت دمشق البارحة وهي تودع عهد الانتداب ، عهد الجهاد والعذاب ، لتستقبل عهد الحرية ، عهد البناء . ونهضت دمشق تسبق الفجر الطالع تؤم الشوارع التي يعرض فيها جيش العروبة ، فما طلعت الشمس وفي النوافذ والشرفات وعلى ظهور البنى والعمارات ، في شارع فاروق وفؤاد والجامعة السورية والسنجقدار ، وميدان المرجة وضفاف النهر ، وفوق قباب التكية السليمانية ، وعلى أشجار المسالك وفي كل مكان يشرف على الطريق ، ما طلعت الشمس وفي ذلك كله شبر واحد خالٍ من رجل إنسان قد قام لينظر ويتطلع ، وأجّر المقعد الواحد بعشر ليرات ، ومكان الوقوف بليرتين . فكان هذا المنظر أحد الأعاجيب .

ونصب الفسطاط ، واجتمعت تحته الأقطار العربية كلها ، جاءت وفود ملوكها وأمرائها من القاهرة والرياض وبغداد وبيروت وعمان وصنعاء والقدس ، يهنئونها في عيدها ، ويشاركونها في أفراحها ، ويقبسون أول شعاعة من شمس الحرية التي أشرقت على العرب بعد ليل طويل ، وكان مشرقها دمشق .

قفوا لحظة على هذا الفسطاط فإنها ستقف عليه الأجيال ، إنه سيقدسه التاريخ ، إنه سيكون لنا كما كانت حطين للجدود . إنها ساعة حاسمة في تاريخ العالم ، فقد تحرك فيها الفلك ؛ وانقلبت في تقويم البشر ورقة جديدة . إن الأيام ما زالت سجالاً بين الشرق والغرب ، والدنيا بينهما نُوَباً : قام الشرق يحمل منارة الحضارة وسيف الظفر بأيدي المصريين البابليين والحثيين والفنيقيين ، ثم انتقلا

---

(١) أي من كان منهم مع الفرنسيين .

إلى الغربيين ، إلى اليونان والرومانيين ، ثم عادا إلى الشرق الذي أيقظه محمد ﷺ ، إلى المسلمين ثم آبا إلى الغرب لما ترك الشرقيون هدي محمد ، وهاهما يتحركان الآن ، ليعودا إلى الشرق .

وعز الشرق أوله دمشق[1]



لقد ضاع حُلمك يا غورو ، وتبدد ، وخابت أمانيك يا ديغول ، وحقق الله الأمنية التي كان يجيش بها صدر يوسف العظمة ، شهيد ميسلون ، وسيحقق أماني سعد زغلول ورشيد عالي ومحمد عبد الكريم وعمر المختار وعبد القادر الجزائري ومحمد علي جناح في الهند . ولم لا ؟ وأهل سورية التي نعمت بالجلاء لا يزيدون إلا قليلاً عن سكان القاهرة اليوم ، والعرب كلهم بدولهم وحكوماتهم أقلّ من مسلمي الهند .

فتيهي يا دمشق واعتزي ، فقد كنت عاصمة العرب في أول الدهر ، حين أنشىء فيك الملك الضخم ، وأقيمت الدولة العظمى ، ورسا عرش عبد شمسٍ على ثراك ، فطالت فروعه النجم ، وأظلت المشرق والمغرب ، وطلع على الدنيا مجداً ورخاء وأمناً . وعدت اليوم عاصمة العرب حين كنت أول بلد عربي خلص لأهله بعد الاحتلال ، فلا يشاركهم فيه جيش حليف ولا منتدب ولا وصي ولا محتل .

يا دمشق ! لقد عادت أيام معاوية وعبد الملك والوليد ، لقد اتصل التاريخ الذي كان انقطع منذ قرون .



---

(١) شوقي .

الجلاء عن دمشق

- ٢ -

في عمر الإنسان ساعات هي العمر ، تفنى الليالي وتنقضي الأعمار وتخلد هذه الساعات ذكرى في قلوب البنين . وفي تاريخ الأمم أيام هي التاريخ ، تمرّ السنون متحدرة في درك الماضي ، مسرعة إلى هوة النسيان ، وتبقى هذه الأيام جديدة لا تبلى ، دانية لا تنأى ، مشرقة لا تغيب . وللإنسانية أيام هي ركن الإنسانية ، لولاها ما قام لها بنيان ولا ثبت لها وجود . أيام قد عمت بركاتها ، وشملت خيراتها البشر جميعاً . أيام هي ينابيع الخير والحق والعدل في بيداء الزمان ، وهي المفخرة لأمة أرادت الفخار ، وما أكثر هذه الأيام الغرّ في تاريخنا ! تلك الأيام التي أفضلنا فيها على العالم كله ، وسمونا به[1] إلى ذرى الحضارة : يوم الهجرة ، وبدر ، والقادسية ، واليرموك ، ونهاوند ، وأيام قتيبة وابن القاسم في المشرق ، وعقبة وطارق في المغرب ، ومحمد الفاتح في الشمال ، ويوم عين جالوت ، وحطين ، واليوم الأغرّ الذي أعاد لنا يوم حطين ، وكان فجر اليوم الجديد للعرب بل للمسلمين أجمعين : (يوم الجلاء) .

إنه يوم مُعْلَم في موكب الزمان ، إنه شَعَارة من شعائر المجد يقف عليها الفلك كلما دار دورته وقفةً فيها خشوع وفيها فرح وفيها إجلال . إننا قد ابتهجنا بالجلاء وهتفنا له ورقصنا وصفقنا ، وملأنا منازل العربية أنساً به وفرحاً ، ولكننا

(١) أي بالعالم .

لم نعرف قدر يوم الجلاء ، إنما يعرفه من سيأتي بعدنا ، يعرفه غداً من ينعم بظل هذه الشجرة التي نبتت اليوم . هنالك وقد امتدت فروعها ونمت حتى ظللت بلاد العربية والإسلام ، يقول أبناؤنا : ياما أكرم ذلك القضيب الطريّ الذي صار الجذع الضخم لهذه الدوحة الباسقة ، وهنالك يبلغ من خطر هذا اليوم أنه سيجد الجيل الجديد شيوخاً ، قد لاتكون لهم مزية إلا أنهم رأوا هذا اليوم بعيونهم ، وعاشوا فيه حقيقة لابالخيال . وسيجلس هؤلاء الشيوخ في صدور المحافل يحدثون الناس عن الذي رأوه ، ويصفون كيف بدت تباشير الفجر المبارك ، ليوم العروبة الجديد ، وسيكون لكل حركة تحركناها اليوم وكل كلمة قلناها ، معنى كبير لانتصوره نحن الآن ! سيصير هذا اليوم بتفصيلات وقائعه وحقائق أحداثه ملكاً للتاريخ الذي يقدس كل ما يدخل حماه ، ويومئذ يُعرف (يوم الجلاء) .



وقد زعم العداة أننا فرحنا هذا الفرح لأننا أعطينا مالم نكن نحلم به ، كالفقير المسكين إذ يطلب فلساً فيمنح ديناراً ، كلا ! إننا لم نأخذ إلا الأقل من حقنا . إن الجلاء ليس عجباً ، وإنما كان العجب العجاب أن يكون في ديار الإسلام احتلال . العجب أن لانحكم نحن الأرض ونحن خلقنا من أصلاب من حكموها ، وورثنا القرآن الذي به دانت لهم الأرض .

ولكنا فرحنا لأن الله جعلنا نقرأ هذا التاريخ الماجد العظيم قبل أن يكتب ، وأن ندرك أول الإقبال كما شهدنا آخر الإدبار ، فنحن المخضرمون .. وإذا كان نور التوحيد قد سطع من الحجاز فكانت المدينة عاصمة الراشدين ، ثم مشى إلى دمشق فصارت دمشق عاصمة الأمويين ، فكذلك كان مطلع شمس الحرية بدت من الحجاز والجزيرة فكانت أول قطر لنا خلا من أجنبي ، ثم امتدت أنوارها إلى دمشق . وهي تمشي الآن إلى القاهرة وإلى بغداد ، ثم تسلك طريق الأندلس ، الفردوس الإسلامي المفقود الذي سيعود ، والطريق الآخر الذي يصل

إلى الـ (بـاكستـان) ديـار الأطهـار[1] ، فلا يبقى في ظلال المـآذن كافر يحكم بغير ماأنزل الله .

وزعموا أن هـذا الجلاء قـد أتى عفـواً بـلا تعب ، وأننـا لم نـوجف عليـه بخيـل ولا ركاب ، ولولا أنها جاءت به مصلحة الإنجليز ما جـاء ، وكـذب هؤلاء الزاعمون ولَؤُموا .

كذبوا والله . أوْ فليخبروني : أجاهدت أمة على ضعفها وقلة عـددهـا ، وعلى كثرة عدوّها وقوته ، مثلما جاهدنا . إن في مصر العزيزة تسعـة عشر مليونـاً ، وفي أندونيسية ثمانين ، وفي الهند مئة وعشرين ، من المسلمين ، ونحن لا نعدّ كلنا بدونـا وحضرنا ، رجالنا ونسـاؤنـا ، أكثر من ثلاثـة ملايين ، وقـد ابتلينـا بفرنسـا ذات الطيش والحمق والملايين المئة ، والعُدّدِ والآفـات . فسلوا الفرنسيين : هل أرحنـاهم يـومـاً واحـداً ؟ من ميسلـون إلى يـوم الجـلاء ، أمـا ثرنـا على فرنسـا ؟ وكسرنـا جيوشها في خمس مواقع ؟ سلوا الجنرال ميشو القـائـد الـذي حـارب الألمـان عنـد المارن : أما أباد حملته مجاهدون منا ، لم يتعلموا في مدرسة حربيـة ولا درسوا فنون القتال ، وغنمنـا عتـادهـا كلـه فلم يعـد من الحملـة بعـد معركـة المزرعـة إلا مئتـان وخمسون جندياً فقط ؟ سلوا الغوطة عن معارك الزور وعما صنع حسن الخراط ؟ سلوا النبك وجبالها ؟ وحماة وسهولها ؟ وجنرالات الفرنسيين ؟ عن بطولة قوادنـا الأبطال ، حسن الخراط ، وسعيـد العـاص ، ومحمـد الخطيب ، وعشرات وعشرات إن لم أعدهم اليوم ، فما يجهلهم أحد .

---

(١) وتلك ترجمة الكلمة ، والباكستان أمنية كل مسلم في الهند ، يقودهم إلى تحقيقها مولاي محمد علي جناح لا يشذ عنها إلا أبو الكلام أزاد وقليل من المسلمين معه .
تعليق : كتبت هذه الحاشية حين الجلاء ، وقد قامت اليوم حكومة بـاكستـان ، وفيهـا ثمـانون مليونـاً من المسلمين ، وقـامت أنـدونيسيـا وفيهـا ثمـانون مليونـاً من المسلمين ، واستقلت الملايو المسلمة ، وبقي مع ذلك في الهند أربعون مليون مسلم .

أما ضرب الفرنسيون دمشق أقدم مدن الأرض العامرة بالقنابل مرتين ، في عشرين سنة ، أما أحرقوا حي الميدان وهو ثلث دمشق ودمروه ؟ فلم ينهض من كبوته إلى اليوم ؟ أما أضرموا النار في جرمانا والمليحة وزبدين وداريا ودير بجدل والغزلانية وتل مسكن ودير سلمان وقرى أخرى لا يحصيها من كثرتها العد ؟

بل سلوا شوارع دمشق ودروبها وساحاتها ؟ عن إضراباتها ومعاركها ومظاهراتها ، أما لبثت في مطلع سنة ١٩٣٦ م خمسين يوماً مضربة ؟ لا تجد فيها حانوتاً واحداً مفتوحاً ، مقفرة أسواقها كأنها موسكو حين دخلها نابليون ، فتعطلت تجارة التاجر ، وصناعة الصانع ، وعاش هذا الشعب على الخبز القفار ، وطوى ليله من لم يجد الخبز ثم لم يرتفع صوت واحد بشكوى ، ولم يفكر رجل أو امرأة أو طفل بتذمر أو ضجر ، بل كانوا جميعاً من العالم إلى الجاهل ومن الكبير إلى الصغير ، راضين مبتهجين ، يمشون ورؤوسهم مرفوعة ، وجباههم عالية ، ولم نسمع أن (دكاناً) من هذه الدكاكين قد مس أو تعدى عليه أحد ، ولم يسمع أن لصاً قد مدّ يده خلال هذه الأيام إلى مال ، وقد كانت الأسواق كلها مطفأة الأنوار ليس عليها حارس ولا خفير ، فهل قرأ أحد أو سمع أن بلداً في أوربة أو أميركة أو المريخ يسير فيه اللصوص جياعاً ولا يمدون أيديهم إلى المال المعروض حرمة لأيام الجهاد الوطني ؟ ولقد بقي الأولاد في المعسكر العام في المسجد (الأموي) أياماً طوالاً يرقبون وينظرون ، فإذا فتح تاجر محله ذهبوا فأغلقوه . ففتح (حلواني) مشهور ، فذهب بعض الأولاد فحملوا بضاعته ، صدور (البقلاوة والنمورة والكنافة) إلى المسجد ، وتشاوروا بينهم ماذا يفعلون بها ؟ فقال قائل منهم : نأكلها عقاباً له ، فصاحوا به : إخرس ويلك ، هل نحن لصوص ؟ ثم أرجعوها إليه بعد دقائق ومافيهم إلا جائع .

فهل قرأتم أو سمعتم أن صبيان باريز ولندن ونيويورك فعلوا مثله ؟

وقد عمد الفرنسيون آخر أيام الإضراب إلى فتح المخازن قسراً ، فكان أصحابها يدعونها مفتوحة ولا يقتربون منها ، وفيها أموالهم التي تعدل أرواحهم .

و (التبرعات) ، ألم يكن الناس يعطونها من غير أن يطلبها منهم أحد ؟ ألم يكونوا يتسابقون إلى دفعها ؟ ألم يرفض كثير من الناس أخذ (الإعانات) ويقولوا أعطوها غيرنا ممن هم أحوج إليها منا ، نحن نجد طعاماً هذا النهار .

لقد وقع هذا وشاهدته أنا مراراً ، فأي وطنية أعظم من هذه الوطنية ؟ وأي اتحاد أوثق من هذا الاتحاد الذي تصبح فيه المدينة كلها أسرة واحدة .

والبطولة والجهاد ، ألم يفعل الشاميون الأفاعيل ؟ ألم يهجموا على النار والحديد ؟ ويقاوموا بالحجارة أروع وأبشع ما وصلت إليه حضارة الغرب من ضروب التقتيل والإهلاك والتدمير ، ألم يفتح الأطفال صدورهم للرصاص ؟ ألم يصمد الفتية العزل للجيش اللجب لا يزولون حتى يزول عن مكانه هذا الجبل ؟ ثم يصدمونه صدمة الند للند ، ثم لا ينجلي الغبار إلا عن حق يظفر أو شهيد يقتل ، أو جريح يؤسر ؟ ألم تلبث دمشق مدة الانتداب وهي في حرب ساحتها وشوارعها ؟ ميادينها لا تكاد تختفي منها الخنادق والأسلاك والرشاشات والدبابات حتى تعود فتظهر مرة أخرى ، ولا تهدأ النار في ركن من أركانها حتي يندلع لسان النار في ركن آخر ، ودمشق ثابتة على جهادها ؟

ألم يشيع الأمهات أبناءهن إلى المقبرة راضيات هاتفات ؟ ألم يجاهد الطفل الصغير ، والمرأة العجوز ، والشيخ الفاني ؟ ألم تمتلىء السجون بالأبرياء ؟ ألم تضق المقابر بالشهداء ؟

فهل تكلم تاريخ هؤلاء الفرنسيين في آذانهم ؟ هل عرفوا لهذا الشعب حقاً ، هل قدروا له تضحيته ، هل رفعوا قبعاتهم عن رؤوسهم حينما كانت تجوز بهم مواكب شهدائه ؟ هل خشعت قلوبهم حينما رأوا مسيل دمائه ؟ لا ، إنهم نسوا

تلك الدعوى الكاذبة ، دعواهم أن أجدادهم هم الذين أعلنوا حقوق الإنسان ، وأنهم غسلوا بدمائهم صفحة الاستعباد والاستبداد ، ونسوا ما كتبه روسّو وفولتير ومنتسكيو ، وماقاله ميرابو وسيّيس ولافايت ، وماكان يكذب به الفرنسيون (أيام ثورتهم تلك) على الشعوب إذ يعلنون أنهم نصراء المظلومين !

إني ما خططت هذه الكلمات لأؤرخ فيها جهاد الشام ، فإنها تؤلف فيه الأسفار الضخام ، ويخلد حديثه على طول المدى ، وماذكرت نبأ إضراب الخمسين ، لأتقصى أخباره وأجمع حوادثه ، وإنما أردت أن أردّ كذبة مازلنا نسمعها حتى من الأصدقاء .

وماعظمة جهادنا في هذا الإضراب الشامل وحده ؛ ولا في المظاهرات الدامية ، ولا في القتال والنضال ، بل العظمة في هذه التربية الوطنية العجيبة التي أثبت الشعب العربي في الشام أنه بلغ فيها غاية الغايات ، فكان في اتحاده واجتماعه على الفكرة الواحدة ، وتحمله الجوع والألم في سبيلها ، وإقدامه على الموت من أجلها ، مثلاً للشعوب القوية الحرّة . وماظنك بشعب فقير يدع فيه التاجر مخزنه والعامل مصنعه ، والطالب مدرسته ، ثم يؤلفون جميعاً صفاً واحداً ، ينتزع حقه من أفواه البنادق ، ومنافذ الدبابات ، ويسجل جهاده على ثرى وطنه بمداد دمه ، وماظنك بشعب تودع فيه المرأة ولدها ، ثم تدفعه إلى الشوارع ليجاهد ويناضل ، ثم ينعى إليها ، ثم يحمل إلى دارها ميتاً فتغسله بيدها ، وتخرج في جنازته تهتف وتزغرد ، ودموعها تسيل على خديها ، وتدع المرأة أولادها بلاعشاء ، لتدفع المال للفقراء من أبناءِ الوطن .

أيقال لهذا الشعب إن استرد حريته ، وجلا عن أرضه عدوه : لقد جاءك الجلاء عفواً وبلاتعب .

كلا . إنها ماجاهدت أمة مثل جهادنا ، ولا حملت مثل ماحملنا . إنا قد

رأينا الموت ، وألفنا الفقر ، واعتدنا الجوع ، وأصبحت مدينتنا بلاقع ، وأهلها مفجوعين ، ونساؤها ثاكلات ، أفيكثر علينا أن ننعم بالجلاء ؟ أيقال أننا أخذناه بعد ذلك منحة من الإنكليز ؟

كلا ثم كلا ، إنا أخذنا حقنا بعون الله ثم بعزائمنا ، ولو والله عاد فاستلبه منا أهل الأرض مجتمعين لقارَعْناهم عليه ونازلناهم حتى نستعيده كاملاً أو نموت دونه . وليس في الدنيا أقوى ممن يريد الموت ، لأن الذي يريد الموت لا تخيفه وسائله ولا آلاته !



أستغفر الله ، اللهم إنا نبرأ إليك من أن نعتمد على أنفسنا ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك ، اللهم لك الحمد وبك التوفيق ، ولا اعتماد إلا عليك .

اللهم لك الحمد على أن أحييتنا حتى رأينا هذا اليوم العظيم ، وشهدنا جيشنا يعرضه زعيمنا تحت علمنا ، فإن هذه الفرحة تطغى على تلك الآلام .

لقد عرضنا اليوم الفصيلة الأولى من جيش العروبة ، فرفرفت أعلامها فوق الصفوف ، واجتمع فيها جنودها من أقطارها كلها[1] . هذه بقية جيش الماضي الذي خفقت له تحت كل نجم راية ، وسما له في كل ربع علم ، وكتب له في كل معركة ظفر ، وهذه نواة جيش المستقبل الذي سيعيد بعون الله تلك الأمجاد ، ويعلي في الأرض كلمة الله .

لقد طالما رأيناه يعرض علينا هذا الجيش ، يعرضه سادة الأمس كما يعرض المعلم الظالم عصاه على التلاميذ ، والطاغية الجبار سيفه . يقولون لنا : انظروا إلى قوة فرنسا واحذروا أن تفتحوا باسم الحرية أفواهكم . وإلا نزلت هذه السيوف

(١) إلا المغرب فك الله إساره .

على أعناقكم ، وضربت هذه المدافع دوركم ، وكان هؤلاء الجند الذين هم أبناؤكم عوناً عليكم . فجاء رئيسنا يعرضه اليوم ، ليقول : انظروا إلى جيشكم الذي يذبّ عنكم ، ويحمي حريتكم ، إنه لكم .

فلا تلوموا دمشق إن مشت كلها من قبل مطلع شمس يوم الجلاء لتشهد هذا العرض . إنه عرض مبارك ، التقى فيه أول مرة الإخوان الذين كانوا يتعارفون على السماع لا يعرف الأخ منهم أخاه ، فمشى فيه الجندي المصري إلى جانب العراقي ، والنجدي إلى جنب اللبناني ، والأردني مع اليماني ، مشوا جميعاً في طريق واحدة على قدم واحدة إلى غاية واحدة .

اسمعوا ، فهذه هي المدافع ترعد وتدوي وتزلزل الجوّ رجّة واهتزازاً ، انظروا فهذه هي الطائرات تحوّم وتحمحم وتعلو وتنحط ، وتجيء وتذهب ، ولكن لا تفزعوا ، فإنها لن تؤذيكم ، إنها ليست مدافع الفرنسيين التي تدمر ، ولا هي طائراتهم التي تصبّ الحمم ! لقد ذهب الفرنسيون ولن يعودوا . إنها مدافعنا نحن ، لقد صارت لنا يا قوم مدافع . إنها طياراتنا ، لقد صار للعرب طيارات ، إنها أول مرة نسمع فيها المدافع تنطلق بإرادتنا وأيدينا ، ونرى الطيارات تعلونا فلا ترمينا بالقنابل التي فيها الموت بل بالقراطيس التي فيها السكر ، تسقط في مظلات صغيرة هدية من مصر ومن العراق ، وبشرى بأن أيامنا الآتية ستكون حلوة كالسكر .

فيا أيها الإخوان المصريون والعراقيون : شكراً شكراً . ويا إخواننا جميعاً لكم الشكر .

أنتم أفضتم على هذا العيد بهاءه ، أنتم ألبستموه رونقه ، أنتم جعلتموه أعظم وأجلّ ، حين جعلتموه (يوم العروبة) كلها ، لا يوم سورية وحدها ، وبكم بعد الله قوينا على حمل أثقال الجهاد ، وأعباء الظلم ، حتى منّ الله علينا فظفرنا ،

وعليكم أنتم سنقف عزائمنا وأموالنا وسواعدنا ، وفيكم سنبذل مهجنا وأرواحنا ، حتى يمنّ الله على الأقطار العربية كلها بالحرية كما منّ بها علينا ، بالحرية النقية التي لاتعكرها حماية ولا وصاية ولا انتداب ، إننا لن نلقي السلاح وفي الدنيا بلد إسلامي يحتله أجنبي .

وأنت يا علمنا ، اخفق مطمئناً ، فقد عدت إلى مكانك ولن تنزل منه أبداً ، لن يغلبك عليه علم غاصب آخر ؛ ولو ظاهرته عفاريت الجن ومَرَدَة الشياطين ، وجاء معه بعشر قنابل ذرية ، لن يأخذك منا أبداً ونحن أحياء ، إلا علم (الوحدة العربية) أولاً ، ثم علم (الخلافة الإسلامية) ثانياً ، إذ يبقى فيه عالياً خفاقاً إلى يوم القيامة .





العيد في دمشق

نشرت سنة ١٩٥٧ م

كلفتني مجلة الإذاعة أن أكتب مقالة في العيد ، ففتشت زوايا قلبي ، لأجد صورة للعيد ، فإذا القلب قد ملأته مشاغل الحياة ومشاكل العيش ، وهذه الهموم التي رَكَمتها في زواياه أخبار إخواننا في الجزائر وفي عُمان وفي القرى الأمامية من فلسطين . فلم تدع فيه مكاناً لفرحة العيد .

وفتشت عنه في وجوه الإخوان والأصدقاء ، فما وجدت إلا بسمات على الأفواه وتحيات على الألسنة ، ولكن هذه الابتسامات لم تُخْف ظلال الكآبة من الوجوه . إنها كشمس كانون ، تسطع وضاءة ولكن أشعتها لا تستطيع أن تحسر قناع الجليد عن وجه الجبل .

وفتشت عنه في الطرق والشوارع ، فوجدت زحمة العيد ولكني لم أجد فرحته ، فالناس في ملل وسأم ، كأنهم كانوا يطلبون شيئاً ، فلما لم يجدوه يئسوا منه ، فلم يعودوا يحفلون بشيء .

لم أجد العيد حولي فرجعت أدراجي ، أفتش عنه في طريق العمر ، كما يرجع من يحسّ أن محفظته قد وقعت منه ، فهو يمشي وعينه إلى الأرض ، وأذنه إلى الناس ، علّه يبصرها بعينه ، أو (يبصر) بأذنه خبراً عنها .

رجعت أسير متئداً مترفقاً ، أحاذر أن أطأ على رفات الذكريات ، أسأل كل رفيق ألقاه من رفاق الصبا وأتحسس جيوبه لعل فيها زهرة جافة كان قطفها (في طريقه) من روض الطفولة ، أو لعلّ بين أعطافه عبقاً من عطره ، أو بقية من

رَيّاه . وإذا الكثير من رفاقنا قد ولوا ، عصف بهم عـاصف البلى ، ومن بقي منهم ألوى بـه ريب الزمـان ، وشغلـه بيومـه عن أمسـه ، ففقـد مـع المـاضي ذكريـات الماضي .



ووجـدت العيـد ، ولكن بعـد أن أوغلت راجعـاً في طريـق العمر أكثر من أربعين سنـة ، وجـدتـه في حي قـديم من أحيـاء دمشق . وكان لرمضـان وللعيـد ولهاتيك المواسم روعة وجلال ، في الأحياء القديمة من دمشق في تلك الأيام .

ولم يكن يأتي العيد ، منفرداً مستوحشاً ، كمسـافر من عرض المسـافرين ، أو كأمير متنكر ، كما يـأتي دمشـق (الجـديـدة) في هـذه الأيـام ، بـل كانت تسبقـه البشائر والوفود ، وتدقّ له الطبول ، ثم يَقْـدَم في الموكب الضخم الـذي يملأ البلـد بهجة وفرحة ودوياً .

تصل بشائره من ليلة (٢٧) رمضان ، التي يجتمع فيها أهل دمشق في الجـامع الأموي ، فيغني المغنون قصائـد الوداع لرمضـان ، ويرقص الـدراويش[١] وثيـابهم من أوساطهم منشورة مثل المخاريـط النـاقصـة ، في علم الهنـدسـة ، وعلى رؤوسهم مثل علب اللبن الشامية العتيقـة[٢] ، يـدورون على أنفسهم ، مثلمـا تـدور الأيـام بـالنـاس ، فترفع من اتّضع ، وتخفض من ارتفع ، وتـذل من عز ، وتعـز من ذل ، فلا تدوم بالناس على حال .

والمآذن تقوم في سواد الليل ، تضحك للدنيا بنور المصـابيح ، والمسحر يقرع بطبلتـه عقب[٣] النهـار ، يستحث ركب الأيـام على المسير ، كما يستحث الطبـال

---

(١) وكل ذلك من البدع المنكرة التي لا أصل لها في الشرع .

(٢) وقد بطلت هذه البدعة الشنيعة الآن .

(٣) العقب مؤخر القدم ، وهذا هو المراد هنا .

الجند يوم الحرب ، والبياعون يبتكرون لوداع رمضان أناشيد من أروع الشعر ، لولا أنها عامية اللفظ وأنها مختلة الوزن .

إنها حافلة بكل مشوق مُشَهٍّ ، يبعث في النفس الرغبة في الشراء وإن لم تكن راغبة فيه ، ولكل بياع لحن خاص ورنة خاصة ، فإذا دنا العيد ، زادوا فيها عجائب من هذا النمط ، فيها توديعٌ لرمضان توديعَ المحب حبيبه ، واستقبال للعيد استقبال المشوق من يهوى .

ويا ليت بعض من يخرج المَذَاعات[1] يضمّن هذه النداءات كلها بأنغامها وألحانها في مذاعة يسمعها الناس من محطة دمشق ، فيجلو بها صورة من صور الحياة فيها ، كاد يمحوها الزمان .



وترى دمشق قائمة على قدم وساق ، (القلابات) تنصب في كل مكان ، في مقبرة الدحداح ، وفي الجنائن وأطراف البساتين ، (والدويخات) في الساحات الكبرى ، و (البسطات) ويا لروعتها في نفوس الأطفال ، هل تعرفون ما هي البسطات ؟ دكك من الخشب لها طبقات ، وتغطى بالستائر الخضر والحمر ، وتصف عليها السكاكر والألاعيب ، تتصدرها الأعجوبة الكبرى ، حلم الحالمين من الأولاد ، (الأطمبيل) الذي يمشي (بالزمبرك) .

وتعد عربات (يا مريكب يا عيار) وهي عربات بائعي الحلاوة ، تزخرف وتعلق فيها الأجراس ، ويجرها صاحبها إن كانت صغيرة ، وإن كانت أكبر جاء بحمارة بيضاء جميلة ، فزيّنها وحسّنها حتى لكأنها في يوم زفافها إلى أعظم حمار في البلد .

---

(١) (المذاع) للقصة الإذاعية ؛ مثل (المنظر) للرواية المسرحية ، أما (المشهد) فيمكن أن يجعل له كلمة (مسمع) .
هذه من السمع وتلك من الشهادة ، أي النظر ؛ وهذه كلمات جديدة أقترحها الآن .

والقهوات تستعد ، بالحكواتي والكركوزاتي ، والكراكوز هو سينما تلك الأيام ، وكان في دمشق من أهل هذه الصناعة من كانوا أعاجيب في تأليف القصص ، وفي إخراجها وفي تمثيلها ، والكراكوزاتي هو الذي يصنع ذلك كله ، وهو يقلد بفمه أشخاص الرواية جميعاً ، وأشخاصها (كراكوز) ، و (عيواظ) ، و (مدلل) و (كرّش) ، وكان فيها نقد للحكومة سافر أو متحجب بحجاب لا يستر ، كحجاب نساء الشام في هذه الأيام ، ونقد للناس ، ولولا بذاءة الألفاظ فيه أحياناً لكان فناً من أرفع الفنون .

على أن كل ما كان فيه من البذاءة لا يعدل ما في فلم واحد من هذه الأفلام .

وكل ذلك بشائر العيد .

وفي البيوت ينغمس النساء في صنع (المعمول) و (التويتات) و (الكرابيج) ، حتى إذا وضعنه في الصواني وأرسلنه إلى الفرن سمعت المدافع ، واحد ، اثنان ، خمسة ، عشرة ، واحد وعشرون مدفعاً ؛ لقد جاء العيد .

فيركض الصغار يقبلون أيدي الكبار ، كل يقبل يد من هو أكبر منه ، ويمد الأطفال أيديهم لتلقي العيديات .

وأنتم لا تقدرون الآن فرحة هذه العيديات ، حين يعدّ كل ولد ما جمع ، كقائد يحصي غنائمه بعد المعركة ، أو تاجر يحسب أرباحه ، وما للأطفال والمال ؟ أترونهم رضعوا حبه مع لبن الأمهات ؟ أهي فطرة فطروا عليها ؟ أم هو الاحتذاء والتقليد ؟

وكانت العيديات كثيرة ، لأن في كل بيت قبيلة ، الأم والأب والإخوة ، والعم وزوجته وأولاده ، والعمات والجدة ، والحاكم العام هو الجد الكبير ، يأكل هذا الجيش كله من قدر واحد على مائدة واحدة ، والبيت يرفرف عليه السلام فلا نزاع ولا خصام ، فماذا دهى الناس حتى صار الزوج والزوجة وهما في الدار

وحدهما ، يختلفان على كل شيء ، ولا يستريحان يوماً ، وقد كان هذا الحشد كله في البيت الواحد ، وما في البيت خلاف .

يا أسفى على تلك الأيام .

هذه البيوت التي كانت تبدو من وراء الأبواب ، من الحارات الضيقة المظلمة التي كانت فيها ، كأنها مخازن التبن ، فإذا دخلها الداخل ، فقد دخل جنة تجري من تحتها الأنهار : الصحن المشرق الذي يضحك فيه الزهر ، ويسبّح الطير ويبسم الرخام ، وتزهى النقوش والآيات على الجدران ، يقوم في صدره الإيوان العظيم ، وتطل عليه الغرف المشمسة الدافئة فهو مشتى ومصيف ، وهو نزهة وسكن ، والبركة يتدفق منها الماء ، ويثب على حافاتها . عالم مستقل ، لا تَرى منها ولا تُرى ، ولا تعدو ولا يعدو عليك أحد .

أين هذه البيوت ، من هذه السجون المغلقة المطبقة التي قلدنا فيها غيرنا ؟ سجون ليس فيها صحن ولا شجرة ولا بركة ، ولا يزقزق فيها عصفور ، ولا تسجع فيها يمامة ، ولا ترى منها وجه السماء ؛ إلا إن خرجت إلى الشرفة فصرت على مرأى الناس جميعاً .

والتي لا يكتم فيها شيء ، يراك جارك ، وأنت في فراشك ، ويكشف سرك وسر من يكون معك ، هذا إذا أنت لم تسكن الأقبية ، تحفر في الأرض كالخلد ، وتدفن نفسك حياً ، كأنك قد صرت من الأموات ، قبل الممات .



ولا تضرب مدافع العيد إلا بعد أن يجلس القاضي في المحكمة مجلساً عاماً مشهوراً ، ويذهب موكب الرؤية ، فيرصدوا الهلال من جنوبي البلد ، أو من شرفات مئذنة العروس ، ويشهد الشهود ، ويدوّن المحضر ، ويقضي القاضي بدخول العيد .

أرأيتم مثل هذا الإجلال للقضاء ؟

يسري حكم القاضي عند الناس على الناس ، ويسري عندنا على الناس وعلى الزمان .

وقلما ينام أحد ليلة العيد في دمشق .

كانوا يزدحمون على الكواء ، يوم كان الناس يلبسون الطرابيش لا يمشون مثلنا حفاة من فوق ، وعلى الخياط والحذّاء ، وعلى الخباز وعلى اللحام .

وتذبح الخرفان في الطرق والساحات .

ويستبقون إلى البزورية لشراء الملبس وراحة الحلقوم . أما الشوكلاطة فما أذكر أننا كنا نعرفها في تلك الأيام .

وتعدّ ثياب العيد ، لقد كانت حقاً ثياب العيد ، لا كثيابنا التي تشبه كسوة المآتم ، كانت من (الألاجة) الملوّنة اللماعة ، التي تجعل من كل مجلس روضة مزهرة ، بألوانها التي تنعش النفس ، وتحمل إلى الآناف شذى الربيع .

وكانوا يعدّون لنا نحن الأطفال مجموعة كاملة من الثياب من (البابوج) إلى الطربوش ، نفيق فنراها إلى جنب الفراش ، وكنا ننام على الأرض ، لم تكن الأسرّة في بيوت أمثالنا من أهل الوسط ، فكنا نحلم بها الليل كله ، فنستمتع بها مرتين ، مرة في اليقظة ومرة في الحلم .

ونفيق من قبل الفجر ، كما كنا نفيق في رمضان فلا ننظر في الساعة ، ولا نستمع إلى المئذنة ، كي نتعرف موعد الإمساك بل نأكل إن أكلنا آمنين مطمئنين ، نستشعر الحرية ، وقد كانت لنا قبل رمضان فلم نكن نشعر بها ، لأن الناس لا يعرفون قيم النعم إلا عند فقدها ، يكون الطعام أمامنا فلا نحس الشوق إليه ، فإذا رأيناه في رمضان قبيل الإفطار أحسسنا إليه بمثل شوق المجنون إلى ليلاه ، بل

إن أشواق مجانين الأرض إلى لَيْلَياتهم ، لاتعدل كلها شوقنا إلى كأس الليمون في أيام الصيف من رمضان أو صحن الفول المدمس ، ولو خيّرنا لقلنا ، هاتوا رغيفاً وأوقية لحم وخذوا كل معشوقة في الدنيا وكذلك الناس .

كُلْ أولاً لتبقى أنت ، ثم اعشق وأحبّ ليبقى هذا النسل الطاهر ، نسل أبينا الشيخ آدم .

ويمضي الرجال إلى المساجد ، ولست أنسى قط ، روعة هذا النشيد الخالد لما سمعته أول مرة ، تهدر به أشداق عشرة آلاف رجل في الأموي ، عشرة آلاف جندي من جنود الإسلام ، يهتفون بالنشيد الذي لم تحمل أمواج الأثير من يوم خلق الكون ، نشيداً أروع روعة ، ولا أعظم في النفس أثراً ، النشيد الذي حمله جنود الإسلام ، إلى كل أرض في الأرض ، وزلزلوا به كل حصن ، وظفروا به في كل معركة :

الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله .
الله أكبر ، الله أكبر ، ولله الحمد .

(الله أكبر) دائماً ، المؤذن ينادي (الله أكبر) والناس يهتفون يوم العيد (الله أكبر) ، والخطيب يرج أعواد المنبر ، بـ (الله أكبر) .

ليعلم المسلم ، أنه إن كان مع الله ، فلا يخشى في الحق أحداً مهما كان كبيراً لأن (الله أكبر) .

لقد رسخت هذه الصورة في نفسي ، فلم يزدها كرّ الأيام إلا وضوحاً وجلاء .

ولم يزحمها إلا الصورة التي رأيتها في باكستان مرة ، وفي أندنوسية مرة ، صورة صلاة العيد ، كما هي في الإسلام . والإسلام قد قرر اجتماعات يومية

دوريـة ، لكل حي من الأحيـاء ، هي صـلاة الجمـاعـة ، يتفقـد فيهـا الغـائب ، ويساعد الضعيف ، ويتعاون الناس فيها على كل مافيه الخير . واجتماعـاً اسبوعيـاً أكبر ، هو صلاة الجمعـة . واجتماعـاً سنويـاً للبلـد كلـه هـو صـلاة العيـد . والمـؤتمر السنوي الإسلامي العام ، وهو الحج .

ففقدنا روح هذه الاجتماعات ، كما فقدنا الروح في عباداتنا كلها . فلم يبق إلا مظاهرها .

ولو شهدت معي صلاة العيـد ، في ساحـة كمبير ، وقـد اجتمع أهل جـاكرتـا فيها ، جاكرتا البلدة التي يعيش فيها أكثر من ثلاثـة ملايين مسلم ، أو لو شهـدت الصلاة في ساحة قصر الحاكم العام في كراتشي ، وقد أم بالنـاس الملـك سعود ، كلا بل عبد الله سعود بن عبد العزيز ، فما في الصلاة ملك ومملوك ، ولا أمير وأجير ، يقرأ قراءة خاشع متبتل ، ويضع رأسه على الأرض هو وأصغر عامل في كراتشي ، لشهدت عجباً ، لا توصف روعته ، ولا يصور جلاله .



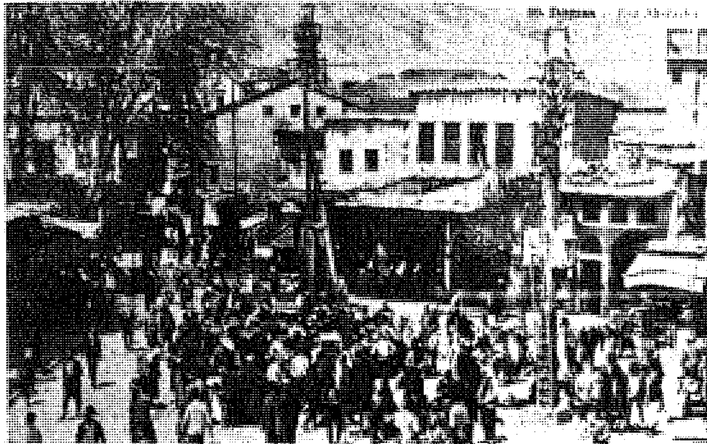
وكنا بعد الصلاة نمشي إلى المقابر ، لقد أدينا بالصلاة حق الله ، وجئنا نؤدي بهذه الزيارة حق الوفاء للأسلاف . وكنت ترى تربـة (الـدحـداح) وقـد لبست القبور فيها من الآس حلة خضراء ، وانتشر فيها البنات والصبيان بثيابهم الملونة ، كنت أراها كأنها بستان لمسته بسحرها أيدي الربيع .

ثم يعـود النـــاس إلى دورهم ليفطروا مـع الأهـل ، ويـأكلـوا السكاكر . ثم يـدورون يتزاورون ، ويـأكلون في كل دار (معمولـة) أو (تويتـة) فلا ينقضي العيد ، حتى يصابوا جميعاً بسوء الهضم ، والتهـاب الأمعـاء ، وتروج سوق (زيت الخروع) (والهنـدي شعيري) ولم يكن (الأنترو فيوفورم) ولا (الستوفـارسول) وهذه العشرات من العقاقير .

عفواً يا سادة لقد استغرقت في ذكرياتي ، فلم أنتبه إلى أن الكلام قد طـال ، وجاوز وقت المقال ، ولا تزال في النفس أشياء وأشياء ، وأنا لم أعرض من الصورة إلا جانباً منها ، عرضته كما هو بما كان فيـه من خير ومـا كان فيـه من شر ، كنت فيه وصافاً ولم أكن ناقداً ، ولا مفتياً .

ولعلي أعود يوماً إلى إكمال الكلام في هذا الموضوع .





حيّ الصالحية في دمشق

أذيعت سنة ١٩٥٨ م

هـذا الحي العظيم الـذي يعـدل هو وحي الأكراد ربع دمشـق . كان أثراً من آثار لاجئ فلسطيني ، نزح من بلده هرباً بدينه من الصليبيين ، كما هرب إخواننـا اليوم بـدنيـاهم من اليهود ، ونزل المسجـد كما نـزلـوا ، وجـاء بـلا ثروة ولا مـال كما جـاؤوا ، ولكنـه صنع هـو وأسرتـه العجب العجـاب ، أفضلـوا على دمشـق دينـاً ودنيا ، وأعطوها أكثر مما أخذوا منها ، أعطوها حياً جديداً لبث قرونـاً وهو أجمل أحيائها منظراً ، وأصحها هواءً ، وأكثرها مدارس ومعاهـد ، هو حي الصـالحيـة ، ونشروا في الحـديث ، والمـذهب الحنبلي ، وأنهضـوا دمشـق نهضـة علميـة رائعـة ، وتركوا مؤلفات عظامـاً هي المراجع الأولى في موضوعهـا . وكان من عجيب أمرهم نشر العلم في النسـاء ، حتى ظهر منهم وظهر في عصرهم من العـالمـات والمحـدثـات ما لا أعرف مثله في عصر آخر ، وأنشؤوا من المدارس مـا تعجز عن إنشـائـه دولـة ، وكان من هذه المدارس جامعة ، جامعـة كاملـة بـالمعنى المعروف اليوم ، بقيت إلى عهد قريب .

هذا هو الموجز ـ كما يقول المذيعون ـ وإليكم الأخبار بالتفصيل .

☆ ☆ ☆

من نحو ثمانمئـة وثلاثين سنـة ، كان في قريـة جمـاعيل في فلسطين شيخ عـالم زاهد ورع مولع بالإفادة والتعليم ، حتى أنه جعل من بيته مدرسة ، فمـا من أولاده وأقربائه ونسائه إلا من يقرأ ويستمع أو يحفظ ، وكانت فلسطين في أزمـة كأزمتهـا

اليوم يحكمها غرباء عنها ، واغلون عليها ، هم المستعمرون الأوربيون ، أي الصليبيون ، وكان الناس في خوف وذعر ، يتسترون بدينهم ، ولكن هذا الشيخ كان يقيم حق الله ويؤدي أمانة العلم ، ويجمع الناس من القرى والدساكر . فيعظهم ويخطبهم يوم الجمعة ، ويحاول أن يوقظ في نفوسهم عزة الإيمان ، وإرث الماضي ، ويذكرهم بحقيقة من حقائق الإسلام ، هي أنه يحرم على المسلمين أن يخضعوا لغير حكم الإسلام ، وأن يستكينوا لغاصب أو مستعمر .

وأنه إذا احتل كافر بلداً إسلامياً وجب على كل رجل فيه وكل امرأة ، أن يحمل السلاح ، ويدافع ولا ينثني حتى تعلو كلمة الله ، ويجلو الغاصب ، أو يكتب الله له الشهادة .

وبلغ الصليبيين أمره ، وهابوا الإيقاع به فنصحوه وزجروه وخوفوه فلم يمتنع ، فحكم عليه الوالي الصليبي ابن بارزان بالقتل .

هنالك عزم على الهجرة ، والهجرة في مثل هذه الحال من واجبات الدين ، وإذا أحسّ المسلم أنه لم يعد يستطيع أن يقوم بشعائر دينه في بلد ، كان عليه أن يهاجر منه ، كما هاجر المسلمون الأولون من مكة ، وأن يترك داره وماله ومصالحه حفظاً لدينه ، كما تركوا دورهم وأموالهم ومصالحهم .

وكان هذا الشيخ هو أحمد بن محمد بن قدامة .

وكتب إلى ولده الأكبر أبي عمر يدعوه ، وراح يجمع أهله ومن يلوذ به ، ويستعد للرحيل سراً ، حتى إذا اجتمعوا خرجوا بليل ، وعلم بهم الصليبيون فبعثوا الجند يفتشون عنهم ، ونصبوا لهم كميناً على الطريق عند نهر الشريعة (الأردن) ، وكان الشيخ وأصحابه يمشون في الليل ويختبئون في النهار ، ولم يكن معهم إلا القليل من المال ، وكانوا يمشون هم ونساؤهم ويحملون صغارهم ، لم تكن لهم دابة يحملون عليها . ونزلوا بجماعة من العرب فرأوا قافلة خارجة إلى الشام ،

فأحبوا أن يصحبوها ، ولكن شيخ العرب ذبح لهم وحلف أن يناموا عنده ، ففاتتهم القافلة وتألم الشيخ ، ومشوا من صبيحة الغد فضاعوا عن الطريق ، فزاد ألم الشيخ ، ولكنه علم بعد أن القافلة قد ضبطها الصليبيون وقتلوا من فيها ، وأن على الطريق لصوصاً مسلحين ، وأن تأخرهم عن القافلة نجاهم من القتل ، وضياعهم عن الطريق خلصهم من اللصوص ، فحمد الله وعلم أن المرء لو اطلع على الغيب لاختار الواقع .

ووصلوا إلى دمشق بعد متاعب وأهوال ، وكانوا خمسة وثلاثين : الشيخ وابنه أبو عمر ، وابنه الموفق ، والباقون من النساء والأطفال .

ونزلوا في جامع أبي صالح الحنبلي بظاهر الباب الشرقي (ويسمى اليوم قبر الشيخ صالح) ، ولحقهم مئات من أقربائهم وذويهم ، وكان للمسجد أوقاف تحت يد بيت الحنبلي ، فهددوهم بالطرد من الجامع إن لم يكتبوا لهم أنه ليس لهم في الأوقاف حق ولا مطمع فكتبوا لهم ، فعادوا يضايقونهم ، وكان القاضي ابن أبي عصرون (المنسوب إليه سوق العصرونية) محباً لهم ، فكلم السلطان نور الدين ، فنزع الوقف من بيت الحنبلي وولاهم عليه ، وكان الجامع رطباً وكانوا مزدحمين فيه ، فمات منهم نحو أربعين ، وكان الشيخ متألماً من أخذ الوقف فازداد لذلك ألماً . وقال : هل هاجرت حتى أنافس الناس على دنياهم ؟ مابقيت أسكن ههنا .

وذهبوا يطلبون له مكاناً آخر ، فوجدوا مكاناً على نهر يزيد في سفح الجبل ، فبنى فيه مدرسة سميت الدير ، وأنشأها من عشر غرف صغار ، ولا يزال الموضع إلى اليوم يسمى بحارة الدير ، وكان جنب المدرسة العمرية ، أول الطريق السالك من خط الترام إلى جامع الشيخ عبد الغني النابلسي .

وكان ذلك أول ماأنشئ من حي الصالحية ، سميت بذلك نسبة إلى مسجد أبي صالح هذا . ولم يكن قبل ذلك إلا بقايا دير قديم ، ولعل الاسم جاء من هنا ،

ودور متفرقة في أماكن متعددة ، منها محلة دير مرّان ، وكان موضعها في آخر ساحة الجريد مطلة على الربوة ، أما دير مرّان فهو قديم معروف ، وكان بعده المنتزه العام الذي أنشأه نور الدين ، وهو الذي كان تحت الدرج المسمى بالمنشار الذي يصل بين الربوة والمهاجرين ، ومحلة الترب وكانت في محل الدواسة وما يليها إلى جهة كيوان ، ومحلة أرزة وهي حي الشهداء ، وكانت فيها مئذنة عالية عند المسجد المشيد عند قبور الشهداء[1] ، ومحلة بيت أبيات عند موضع طاحون الأشنان ، ومحلة نصري وكانت تحت مستشفى السل وإلى جنبها محلة الميطور ، وكل ذلك لا يزيد عن مجموعات صغيرة من البيوت لاتبلغ أن تسمى قرية ولا محلة .

فكان هذا الدير أساس حي الصالحية .

ولم يكن مع القوم مال يستأجرون به البنائين ، ولا خبرة لهم بالبناء فعمروه بأيديهم . وساعدهم نفر من الناس اعتقدوهم وأقبلوا عليهم وأقاموا فيه ، على خوف من اللصوص ، ووحشة من الوحدة . ثم صرف الله القلوب إليهم وتسابقوا إلى زيارتهم ، وكثرت عليهم الهدايا والألطاف ، وكان السلطان نور الدين يزورهم ويتفقدهم ، وجعل الناس يبنون إلى جوارهم ، فكثرت الدور ، وتتابع العمران حتى صارت الصالحية بعد قرن واحد بمقدار مدينة دمشق كلها يومئذ ، فيها الأسواق الكثيرة ، والأرزاق الوفيرة ، وصارت بفضل بني قدامة هؤلاء مدينة جامعية حقاً .

فقد أنشأ أبو عمر من أول يومٍ المدرسةَ العمرية ، وأنشأ الضياء وهو من أعظم علماء هذه الأسرة المدرسة الضيائية ، وتتابع إنشاء المدارس واستطاعوا بهذه الهمة

---

(١) ومن العجائب أن امرأة جاءت تدعي من قريب أن موضع قبور الشهداء ملك لها وتطلب تسليمه إليها .

العجيبة ، وهذا الكد في الدراسة ، أن يحتلوا في الأوساط العلمية أعلى المنازل ، فنشروا المذهب الحنبلي بعد أن كاد يعد مفقوداً في دمشق ، وأنشؤوا له المدارس الكثيرة ، فكثر أتباعه والمنتسبون إليه ، حتى افتتحت محكمة شرعية حنبلية ، كان قاضيها برتبة قاضي القضاة ، وأول من وليها فيهم ابن أبي عمر ، ولقب بشيخ الإسلام ، وتسلسل قضاء الحنابلة فيهم ، ثم قوي حتى أقيمت حلقة في الأموي أول من درس بها أبو الحسن بن أبي عمر ، ثم أقدموا على خطوة أوسع ، على إقامة محراب للحنابلة .

وعارض أهل الشام أشد المعارضة ، ولكن المحراب أقيم وبقي إلى اليوم ، وجعلت لهم غرفة يستريحون فيها إذا نزلوا من الجبل يوم الجمعة ، في أصل المنارة الغربية وهي الآن أرض مكشوفة بين سور الجامع والمنارة . ولهم في المذهب الحنبلي مؤلفات هي أمهات كتب المذهب .

ولبثوا أكثر من قرن ونصف وهم المرجع في علوم الحديث ، وبرعوا فيها حتى أن الضياء كان يعد محدث عصره ، وله كتاب اسمه المختارة ، من جوامع كتب الحديث ، وتتابع ظهور العلماء الكبار من هذه الأسرة ، واستمرت هذه النهضة على قوتها وشدتها أكثر من ثلاثمئة سنة .

أما المدرسة العمرية ، فلا بد من أن أقف عليها وقفة فإنها تستحق الوقوف ، فلقد كانت تسمى المدرسة الشيخة أي الجامعة . وكانت جامعة حقاً ، وكان فيها على رغم أنها مدرسة حنبلية ، ورغم العصبية المذهبية التي كانت للعوام ، كان فيها أقسام مستقلة (كليات) للمذاهب الأربعة ، يتولاها جلة علمائها ، وكان فيها كلية للقرآن وقراءاته وعلومه ؛ وقسم خاص ، وهذا من أعجب ما رأيت من عبقرية هذه الأسرة وسبقها زمانها ، قسم للمكفوفين : مدرسة عميان ، وقسم للأطفال : روضة أطفال .

وأعجب من هذا أن الدروس والتلاوات كانت تستمر فيها الليل والنهار ، حتى أن الأمير منجك بعث من يراقبها ، فلم يرها فترت من درس أو ذكر أو تلاوة ولا ساعة من الأربع وعشرين ساعة . وكان فيها عدة خزائن فيها نفائس الكتب .

وكل هذا الجيش من الطلاب يأكل وينام في المدرسة ، فكان يوزع كل يوم ألف رغيف ، ويطبخ للجميع ، وتقدم لهم الفواكه والحلوى ، ومعهم جيش من الموظفين لهم رواتب وسجلات ، وللطلاب سجلات وتفقد ، وكان لشيخها رتبة عالية ، تعدل برتبة مدير الجامعة في هذه الأيام .

وكان هذا كله في العصر الذي نسميه عصر الظلام .

ولم تكن وحدها ؛ بل كان في الصالحية إلى جنبها عشرات من المدارس ، عشرات فعلاً ، أهمها المدرسة الضيائية بناها الضياء ، ووقف عليها مكتبة نادرة ، قال الأستاذ دهمان ، بقيت إلى ماقبل قرن واحد ثم سرقت ، وهي اليوم دار مقابل باب جامع الحنابلة الغربي ، ولم يبق منها إلا قوس كبير .

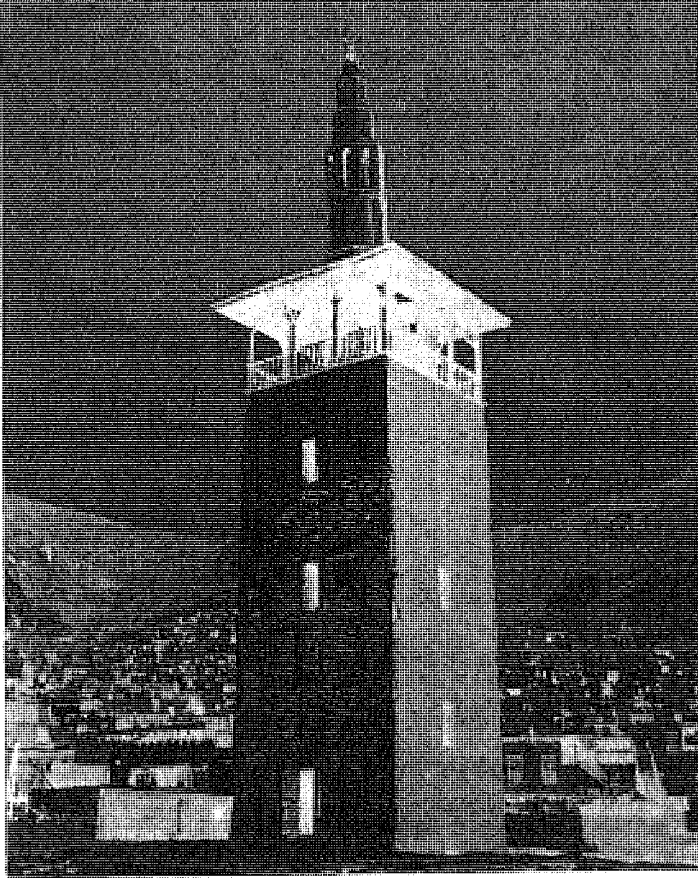


هذه قصة لاجئين من فلسطين ، ملؤوا الشام علماً ، ونشأ منهم أفذاذ ، ماأظن أن أسرة في الشرق والغرب أخرجت أكثر منهم : ابن قدامة الكبير ، وأبو عمر ، والموفق ، والضياء ، والحافظ عبد الغني ، وهم في الفقه والحديث كأسرة قتيبة والمهلب في القيادة ، وجرير في الشعر ، وقد دخل عبد الغني صاحب العمدة مصر ، ونشر المذهب الحنبلي فيها .

ثم ابن عبد الهادي ، وآخرون لايحصون ، وكان من نسائهم نابغات لايدركهن العد ، مضوا ولكنهم خلفوا آثاراً لاتفنى ، منها المختارة للضياء التي تعد من أصح الكتب المؤلفة في زوائد الصحيحين ، والعمدة للحافظ عبد الغني

والشرح الكبير ، وهم الذين نشروا الفقه الحنبلي في الشام . وكتاب المغني للموفق أعظم كتاب في فقه الحنابلة ، ومن آثارهم حي الصالحية .

وبعد فهل يليق بأهل دمشق وهي دار الوفاء ، وبأهل الصالحية خاصة ، أن ينسوا هؤلاء العباقرة الأعلام ، فلا يذكرهم ذاكر ، ولا يعرف سيرتهم أحد ، ولم يسمّ بأسمائهم مدرسة في الصالحية ولا شارع .



منشئ حيّ المهاجرين في دمشق

أذيعت سنة ١٩٥٤ م

إن من حق دمشق على الدمشقيين أن يعرفوا كل بقعة فيها وكل شارع ، وما عرض لـه على طول الزمـان ، ولكن هيهـات ! من يعرف تـاريخ دمشق ؟ وهي أقـدم المـدن العـامرات على ظهر الأرض اليـوم بـلا نـزاع . ولـو أخليت المـدينـة القديمة ، وأبقي الأموي والآثار الظاهرة ، ثم حفرت أرضها ، لظهرت تحتها مـدن مـدفونـة في بـاطن الأرض ، ولقـد رأيت بعيني في بـابل ثلاث مـدن بعضهـا فوق بعض . وفي أور مـدينـة إبراهيم (في العراق) أربع طبقـات ، ولو حفرت دمشـق القديمة لظهرت طبقات أكثر من ذلك ، ولتبدل ماندرسه في المـدارس من تـاريخ العالم القديم .

وأنا أعرف الكثير من تاريخها الأول ، وأعرف الكثير من توسعهـا الحـديث ، وقـد رأيت من يـوم بلغت السن التي أميز فيهـا وأحفـظ إلى الآن ، رأيت كيف صارت دمشق في خلال هذه الفترة في أربعين سنة ، ثلاثة أضعـاف مـا كانت عليـه مساحة ، وأنا أعرف شارع النصر قبل أن يفتحـه جمـال بـاشـا ، وأعرف أن مقبرة الدحداح كانت نهاية البلد[1] . وأن طريق الصـالحيـة لم يكن فيـه إلا صف واحـد من العمارات ، ونصف الطريق خال ، وأن موضع البرلمان سينما ، وقد أرونـا فيهـا ونحن في المدرسة الابتدائية فلْم دعاية لتركية أثناء الحرب العالمية الأولى عن حرب شنا قلعة ، وأعرف المهاجرين وليس فيها على يسـار الصـاعـد إلا صف واحـد من

---

(١) قبل فتح شارع بغداد .

البيـوت ، وآخر بيت على اليمين هـو بيت أبي الخير الفرا ، وليس فيهـا إلا ثـلاث جادات منظمة ، ثم بيوت متفرقة .

أمـا الفترة التي لاأعرفهـا فهي فترة الـولاة العثمـانيين ، وكل مـا عرفتـه من آثارهم ، أن دار العظم والخان من بناء أسعد باشـا العظم من مئتي سنـة تقريبـاً ، وأن عبد الله باشا العظم بنى المدرسة المشهورة ، وأن (السليمانية) من بناء سليمان بـاشـا العظم ، وأن درويش بـاشـا بنى الجـامع ، وأنشـأ الحي الـذي نسب إليـه : الدرويشية ، وضيا باشا جدد تربة ابن عربي وعبد الغني النابلسي وقبة السلطـان صلاح الدين الأيوبي . وعمر فوزي باشا فتح سوق علي باشا[1] ومدحت بـاشـا لـه آثار عظيمة منها السوق ، ومنها إنشاء المدارس ومكتبـة الملـك الظـاهر . وكان من مشروعـاتـه كشف نهر بردى ، ومـد شـارع على جـانبيـه من أول البلـد إلى آخره يكون منتزه أهل الشـام من المرجـة إلى الصفوانيـة (الصوفـانيـة) . وحسن رفيق باشا مد في أيامـه خـط بيروت ، وشكري بـاشـا (الـذي كان أهل الشـام يسمونـه للطفه شكرية خانم) من آثاره جسر الحريـة الـذي رفع الآن وجـدد مكانـه جسر ثابت . وعارف بك المارديني فتح في عهده معهـد الطب ١٣٣١ هـ وطريق الشيخ محي الدين والعفيف ، حيث يسير الخط ، وكان الطريق الوحيد هو طريق حمام المقدم ، والجادة الرشادية وهي اليوم شارع خالد بن الوليد . وخلوصي بـك وضع مخططاً لفتح الجادة الخلوصية موازية لشارع بغداد .

وفي أيام عزمي بك فتحت الجادة من الحجـاز إلى جسر فكتوريـا ، وسميت الجادة السليمانية نسبة إلى سليمان شفيق باشا .

والآن إلى المهاجرين .

---

(١) الذي أزيل حديثاً وصار مكانه ميداناً .

إلى الحي الذي يعدل وحده مدينة حماه أو اللاذقية ، والـذي يزين بـأنواره جيد قاسيون ليلاً كما تزين عقود الألماس جيد الحسناء . تتسلسل جاداتـه كخيوط العقد حتى تزيـد على العشر . من حفـافي تورا ويزيـد إلى صخور الجبل . وفيـه القصور وفيه الحدائق . وفيه المنظر الذي لا تملـك أو تعرف مـدينـة مثلـه : منظر دمشق وغوطتهـا وقراهـا . منظر عرضـه ثلاثون كيلاً[1] . إنكم لو جئتم قبـل ستين سنة ، أو لو سألتم الشيوخ الأحيـاء لخبروكم أنـه لم يكن من هـذا الحي كلـه يومئـذ شيء ، لا كوخ ولا شجرة . كان جبـلاً أجرد مـا فيـه إلا هـذا الصف من المـدارس الأثرية والمدافن الـذي يتسلسل على كتف يزيـد من حـدود حـارة الأكراد ، إلى نزلة كيوان ، ولا يزال باقياً منه آثار نحو عشرين مـدرسـة منهـا السلسلـة التي في الشركسية ، والمدرسـة التي عنـد الحـديقـة الكبيرة ، في أعلى شـارع الجلاء ، وكان فوق ذلك قباب أخر بقي بعض قبورها إلى أمد قريب ، والباقي جبل أجرد .

ولما جاء دمشق الوالي المصلح العظيم ناظم باشا سنة ١٣١٣ هـ قبل ستين سنة بـالضبـط ، رغب في عمـارتـه ، وعرض المتر بـ (متليـك)[2] ، أي بنحو ربع ليرة سوريـة بعملـة هـذه الأيـام ، فلم يقـدم أحـد ، ومن يشتري جبلاً أجرد منقطعـاً ويسكن مع الـوحـوش ؟ ثم اشتراه جميعـاً بخمسين ليرة ذهبيـة مـوظف تركي (مكتوبجي) أي مدير رسائل في الولاية اسمه (بها بك) وحفر فيه بئراً ، جاءها بالماء من (نهر يزيد) ولما نقل من دمشق رجا صديقه شفيق بك المؤيد شراءها ، فاستحيا منه فـاشترى (المهـاجرين كلهـا) بمئـة ليرة ذهبيـة . ودفعهـا وذهب إلى الدار نادماً متألمـاً ، فـأحب أخواه عبـد القـادر بـك وعبـد الله بـك أن يشـاركاه المصيبة ، فتقاسمها الثلاثة ، ودفع كل منهم ٣٣ ليرة وثلث الليرة .

ولما جـاء أمبراطور ألمـانيـا إلى دمشق زائراً ، كان وجيـه دمشق أحمـد بـاشـا

(١) كيل على وزن ميل ، والجمع أكيال (كيلو متر) .
(٢) المتليك أو المتاليك ربع قرش تركي .

الشمعة ، ينازعه الوجاهة عبد الرحمن باشا اليوسف ، فاستعد الشمعة لإنزاله في داره وبنى جناحاً لذلك ، فيه قاعات كبيرة . وله درج فخم ، وقد زرته فوجدت القاعة تتسع لأكثر من عشرة (طقوم كنبات) وخبرني حفيده السيد بديع الشمعة رحمه الله أنه لا يزال عندهم آلاف من الفوانيس التي أعدها وقيل إنها كانت عشرة آلاف ، ليزين بها القصر وحدائقه ليلاً ، واستعد عبد الرحمن باشا لذلك ، فرأى الوالي ناظم باشا ، منعاً للخلاف ، إنزاله في قصر الحكومة . وأعدت له (المصطبة) المعروفة إلى اليوم بمصطبة الأمبراطور في الجبل ، وأقيمت فيها السرادقات الهائلة ، وجرت فيها حفلات بالغة الروعة والفخامة ، وعادت المهاجرين بعد ذلك إلى خلوها وإقفارها ، حتى كانت حادثة كريت (إقريطش) حين غدر بها اليونان ، في أواخر القرن التاسع عشر ، وجاء اللاجئون من أهلها المسلمين دمشق ، فاشترى لهم ناظم باشا أرضاً في المهاجرين وبنى لهم بيوتاً صغيرة أشبه بغرف . وأنا أعرف المهاجرين وأكثر بيوتها من هذه البيوت ، ولا يزال إلى اليوم بيتان منها في فرع من الجادة الثانية بين طلعة المصطبة والشطا . ثم توالى العمران .

وكان ناظم باشا قبل أن يلي الشام ناظر الضبطية في اسطمبول (مدير الأمن العام) فكشف مؤامرة الأرمن فرضي عنه السلطان عبد الحميد وأعطاه داراً في شارع الأخلمور ، وكان الأستاذ العظيم سليمان الجوخدار أول من تنبه لهذه المؤامرة ، ونبه لها قبل وقوعها ، لما كان قاضي الزيتون من نحو سبعين سنة مد الله في عمره[1] .

ولما جاء ناظم باشا دمشق والياً ، استأجر أولاً دار البارودي ، ثم باع داره في اسطمبول وطلب من شفيق بك المؤيد إعطاءه قطعة من أرضه ، فكتب إليه أن

(١) وقد توفي سنة طبع هذا الكتاب رحمه الله [ط ١] .

يختار القطعة التي يريدها على أن تكون هدية ، فلم يرض وجاء بالخبراء فقدروا ثمن القطعة التي اختارها بعشر ليرات ، فأرسل إليه خمسين وبنى الدار التي هي اليوم قصر الجمهورية . وجعل لها حدائق واسعة من فوقها ومن تحتها ، كان فيها أنواع الثمار . أما أنا فأعرفها وما فيها إلا شجيرات معدودة والباقي صبّار ، ولما نقل سنة ١٣٢٥ هـ باع القصر والحدائق لوهبة أفندي المصري .

وهنا حادث طريف يدلكم على جانب من أخلاق هذا الرجل هو أنه بعد أن وعد بالبيع بخمسة آلاف ليرة ، جاءه مصطفى باشا العابد فدفع له سبعة آلاف .

قال : أعطيت المصري وعداً .

قال : وإنْ ، إنّ البيع لم يسجل في (الطابو) .

قال : ناظم كلامه طابو .

ومن أعماله العظيمة جر مياه الفيجة لدمشق ، وكان الناس قبلها يشربون من مياه الأنهار الملوثة ، وقد ألف لذلك جمعية كان من أعضائها شيخ علماء الشام عبد المحسن أفندي الأسطواني مد الله في عمره[1] ، وعطا باشا البكري والشيخ أبو الشامات والدالاتي رحمهم الله ، فاعترض بعضهم بأن هذا الماء حق البساتين فلم يسمع منهم ، وفكروا في طريق تمويل المشروع ، فاقترح بعضهم أن توضع ضريبة على الخبز .

خبرني أستاذنا الأسطواني ، أن الباشا غضب وقال : أتريدون أن يدفعها الفقراء ، اجعلوها على الكاز فإن الفقير يشعل ضوءاً واحداً ، والغني أضواؤه كثيرة ، فيكون أخذها من جيوب الأغنياء ، وجلب الماء من عين الفيجة على مسافة عشرين كيلاً[2] .

---

(١) وقد جاوز المئة عند كتابة هذا الفصل .

(٢) أما الماء الذي يجري اليوم في البيوت فقد جرّ إليها في نفق وسط الجبل من نحو ثلاثين سنة وعملت على ذلك لجنة من خيار الشاميين كان على رأسها الأستاذ لطفي بك الحفار .

وكانت الحدائق كثيرة في دمشق ، وكان للأسواق سقوف من خشب ، وكان يسري الحريق من جانب إلى جانب فجعل السقوف كلها من الحديد . وهو الذي بنى سراي الحكومة والمستشفى الوطني والصيدلية ، وهو الذي مد خط البرق (التلغراف) من دمشق إلى المدينة بمعونة صادق باشا العظم والعمود القائم في المرجة إنما وضع تذكاراً للانتهاء من مده ، وساعد أجلّ المساعدة في مد الخط الحجازي وهو وقف إسلامي ، وفي أيامه بنيت الثكنة الحميدية (الجامعة السورية اليوم) وفتح سوق الخجا ، وهو الذي سعى حتى أقيم للمسيحيين بطريرك عربي .

ولي الشام مراراً امتدت ولايته الأولى اثنتي عشرة سنة من ١٣١٣ هـ إلى ١٣٢٥ هـ ، ولما سافر ودعه الشاميون بأغانٍ مشهورة فيها لوعة الحزن .

وفي سنة ١٣٢٧ هـ عاد فمكث مدة قصيرة ، وقامت في أيامه ثورة الجمعية المحمدية وأحسن التصرف ، وفي سنة ١٣٢٩ هـ أعاده الاتحاديون على شرط أن يسعى لنجاح قائمتهم في الانتخابات ، ووعدوه إن نجح بوزارة الداخلية ، فوقف موقفاً حيادياً نزيهاً أدى لنجاح القائمة الائتلافية بعضها من الاتحاديين وبعضها من خصومهم ، فكان النواب عن دمشق أستاذنا عبد المحسن أفندي الأسطواني ومحمد باشا العظم وعبد الرحمن باشا اليوسف وأمين الطرزي .

وكان مستقيم السيرة ، ومن دلائل استقامته أنه أرسل موظفاً خاصاً للإشراف على الانتخاب في الأقضية ، ومنع جماعة الاتحاديين من إفسادها ، وقرر له خمسين ليرة ذهبية مصاريف ، فلما عزل طالبوه بها ، وكان قد افتقر وباع كل ما في داره ، ونزل في دار الأستاذ بديع بك المؤيد في اسطمبول . ولم يبق لديه إلا وسام مرصع من الأمبراطور الألماني ، ووسام من شاه الفرس فباعهما ب (٢٥٠) ليرة ووفى الخمسين التي أنفقها على الانتخابات من ماله ، وحفظ الباقي عند بديع بك لزواج ابنته .

وآخر ما عرفته من أخباره أن بديع بك كان نائب دمشق في البرلمان العثماني ، وقدم الشام في إجازة سنة ١٩١٨ م فأرسل معه بنته عزيزة لتزور أختيها المتزوجتين في بيروت ، وصحبهم في الطريق عالم معروف ، فكانت تناظره في العقائد وعلوم الدين .

هذا هو الرجل الذي لا يعرف في ولاة العثمانيين من خدم الشام مثله اللهم إلا مدحت باشا ، ومع ذلك فلم يذكره الأستاذ كرد علي رحمه الله في الخطط ، ولم يعرض له بكلمة واحدة لأنه كان يكرهه ، وكان يمتاز بمزايا ثلاث :

حبه العمران وله وحده من الآثار ما لولاة الدولة كلهم ، وحب المصلحة العامة ، والنزاهة والعفة حتى أنه مات فقيراً لا يملك شيئاً .

فيا أهل الشام .

كلما شربتم ماء الفيجة العذب الزلال ، وصعدتم إلى المهاجرين فرأيتم منظراً هو السحر الحلال ، أو دخلتم قصر الجمهورية أو السراي أو الجامعة أو المستشفى ، أو مررتم بهذه الأسواق واستظللتم بسقوفها الحديدية ، من شمس الصيف ومطر الشتاء ، فاذكروا هذا الرجل العظيم ناظم باشا الذي كان له في كل مكان أثر : في القصر دار الحكم ، وفي الجامعة دار العلم ، وفي المستشفى دار الصحة ، وفي السوق منزل المال .

رحمه الله

☆ ☆ ☆

جاءنا بعد طبع[1] فصل (حي المهاجرين) هذا البيان من الأستاذ ناظم المؤيد العظم :

« كانت المهاجرين من أراضي أملاك الدولة وكان بعض فلاحي دمر

(١) المراد طبعة الكتاب الأولى سنة ١٣٧٩ هـ - ١٩٥٩ م

يزرعونها قمحاً وشعيراً وكانت حدودها من الفواخير ـ حيث كان آخر العمران بالصالحية ـ إلى المنشار ، ومن حواكير الصبارة والآس ، إلى طريق درب الديب ، وهو طريق جبلي يؤدي إلى دمر ، وقد استملك هذه الأرض كلها بهاء بك (مكتوبجي الولاية) في عهد الوالي حمدي (باشا) ولما نقل من دمشق باعها لشفيق المؤيد العظم وشقيقه عبد القادر ووالدي عبد الله ، فاشتروها مثالثة ، وقبل أن يتم الفراغ تنازل عبد القادر بك للسيد عبد الرحمن بن مُقلة الشهير بالمراكشي ، وبعد أن تعاقب على سورية سبعة ولاة ، وجاء ناظم (باشا) وقعت الحرب ما بين الدولة العثمانية وروسيا ، فتدفقت سيول المهاجرين من الرومللي إلى دمشق ، فأقطعهم الشركاء الثلاثة قطعة أرض واسعة تمتد من الفواخير حتى المصطبة ، والمصطبة كانت قبلاً تسمى وادي السيل ، وسميت المصطبة حينما زار أمبراطور ألمانيا غليوم الثاني سنة ١٣١٦ هجرية دمشق فشادوا له مصطبة أطل منها على دمشق . ثم حدثت حرب أخرى بين اليونان وحلفائها والدولة العثمانية ، فاستولى اليونان على جزيرة (كريت) فهاجر من هاجر منها والتجأ إلى دمشق ، أقطعوهم قطعة أرض أخرى تمتد من المصطبة حتى أمام القصر الجمهوري الحالي . وعندها سمي هذا السفح بجي المهاجرين ، وحينما بلغ الخبر السلطان عبد الحميد أنعم على والدي بوسام رفيع الشأن وبراءة سلطانية ورتبة مجيدة . وقد استحسن الوالي ناظم (باشا) سفح جبل قاسيون ، فطلب من والدي بيعه قطعة أرض ليبني عليها داراً ، فأهدى إليه قطعة واسعة فبنى فيها قصراً فخماً له حديقة واسعة وغرس في السفح الذي يقابله الأشجار ، وحينما انتقل الوالي ناظم (باشا) من ولاية سورية باع قصره مع ما يتبعه من الأراضي للسيد خورشيد وهبي المصري وهو الآن القصر الجمهوري (القديم) » .

هذا ما جاءنا من الاستاذ ناظم المؤيد ، أما ما جاء في الفصل المنشور في الكتاب فهو رواية الأستاذ الكبير بديع بك المؤيد .

دمشق التي عرفتها وأنا صغير

نشرت ١٩٦٠ م

كان شعراء العرب إذا مروا بالأطلال وقفوا واستوقفوا ، وبكوا واستبكوا ، وساءلوا الديار واستنطقوا الآثار ، يذكرون أيام الحب وليالي القرب ، وساعات الوصال ، وكانت هذي سنتهم يبتدئون بها قصائدهم ، ويفتتحون بها أشعارهم ، فلاعجب إذا وقفت بكم اليوم على هذه الدار أستوحيها الذكريات والأخبار .

وماأستوحي ذكريات غرام مضى ، ولاأخبار محبوب هجر ، ولكنها أخبار دمشق التي عرفتها صبياً ، ثم افتقدتها وتبدلت في عيني مظاهرها ، حتى لكأني أعيش اليوم في دمشق غير التي عرفت وألفت .

إن موضوعي اليوم ملامح من دمشق قبل خمسين سنة . جلاها لعيني وأعاد صورتها إلى نفسي ، وقوفي أمس على الدار التي كنا نسكنها في تلك الأيام .

ذلك أني ذهبت إلى العقيبة[1] أزور صديقاً لي فيها ، فلما صرت (تحت المئذنة) قلت أدخل (الديمجية) فأجدد العهد بها ، وقد طال عهدي بفراقها .

ودخلت زقاقاً عرضه متران ، حتى إذا قاربت المسجد وقفت ، وجعلت الأيام تمر بي راجعة أراها تطوى لي السنين حتى رأيتني إماماً رسمياً في المسجد قبل ثمان وثلاثين سنة ، ثم أرى الأيام تمر بي راجعة ، حتى رأيتني وأنا صغير ، قبيل الحرب وخلال سنيها الأولى .

---

(١) خرج من هذا الحي من الأدباء خير الدين الزركلي ، ومعروف الأرناؤوط وأنور العطار وشكري فيصل .

لقد سكنا هذه الدار ثلاثين سنة وسكنها من بعدنا الشيخ الكافي رحمه الله (ديار) أرضها من (العدسة)[1] السوداء وجدرانها من الطين ، وفي صدرها غرفة رطبة لا تستطيع الشمس أن تدخلها تفضي إلى غرفة أصغر منها ، مظلمة تحتاج في الظهر إلى مصباح ، وفي الطرف الآخر من الرحبة مطبخ ، وفوق ذلك غرفتان .

وكانت تجري في الدار ساقية ، قد جاءت من (نهر تورا) تقطع ثلاثة آلاف متر لتصل إلينا ، تجري مكشوفة تحمل كل ما يلقى فيها ، وكانوا يشربون منها قبل أن يجر ناظم باشا ماء الفيجة إلى الشام ، ومن ترفع عنها شرب من مياه الآبار ، ولما وعيت كانت سبل الفيجة قد أنشئت وكنا نملأ الأوعية منها ، من المرجة أولاً ، لأنه لم يحدث إلا سبيل واحد فيها ؛ ثم من فيجة الحارة ، وكنا نملأ الجرار من ماء الفيجة للشرب والطبخ فقط ، وما عدا ذلك فكان له ماء الساقية .

وكنا نأخذ الماء منها قبيل الفجر لأنه يكون أنظف ، ثم نصلي وكان أهل الحي جميعاً يفيقون قبل الشمس ، يصلون ويلبثون أيقاظاً ، لا تجد في الناس من كان ينام إلى ما بعد طلوع الشمس ، لأنه لم يكن فيهم من كان يسهر إلى ما بعد العشاء ، إلا أن يكون عرس أو مولد أو تلبيسة وهذا شيء نادر .

وأين يسهر من يريد سهراً أو لهواً ؟ وما في البلد إلا سينما أنشأها الأتراك للدعاية الحربية كانت في موقع البرلمان ، أخذونا إليها فأرونا (فلما) عن حرب (شناقلعة) أثناء الحرب الأولى ثم احترقت وبقيت خرائب مدة طويلة حتى أقيم مكانها البرلمان ، وسينما (زهرة دمشق) وقد أنشئت بعد ، وكانت في موضع عمارة القباني في مدخل السنجقدار ، وأخرى وراءها عند النهر ، وكانت السينما في أول العهد بها صامتة مرتجفة فلم يكن يدخل السينما إلا بعض الشباب خلسة من وراء

---

(١) العدسة شيء كالشمنتو ولم يكن الشمنتو معروفاً يومئذ .

ظهـور أهلهم ومعلميهم ، وكان في أول السنجقـدار ملهى صغير تغني فيـه بعض المغنيات من غير المسلمات .

وكنـا بعيـدين عن عـالم الغنـاء والتمثيل ، ولكني كنت أسمـع أنـه لم يكن في دمشق من المغنيـات المحترفـات إلا ثلاث أخوات يهـوديـات هن (بنـات مكنـو) فكان المـوسرات من غير ذوات الـدين يـأتين بهن ليغنين في أعراسهن وأفراحهن ، وكان الغناء من الأمور المعيبة المستقبحـة التي يستحيـا منهـا ، وكان الرقص أفظع منـه ، ولم يكن يتصور أن تشتغل بـالغنـاء فضلاً عن الرقص بنت أسرة من الأسر الشامية ، وإن هي فعلت (وهذا مالم يسمع بوقوعه) فإن أباها يذبحها أو يضربها بالرصاص .

هذا إذا هي غنت أو رقصت للنسـاء ، أمـا أن تغني أو ترقص للرجـال فكان في رأيهم من المستحيلات .

كنا نفطر صباحاً ونتعشى بعد العصر ، أما الغداء فلم يكن مألوفاً عند عـامـة الشـاميين ، وكان الخير كثيراً وكان كل شيء رخيصـاً ، فكنـا نـأكل خبز القمـح الخالص ، والسمن العربي الصافي ، لم يكن قـد سمع أحـد بـاسم السمن النبـاتي فـإذا انقضى الفطـور انصرف النسـاء إلى أعمـالهن وذهب الرجـال إلى أسـواقهم أو إلى دواوينهم ، وكان أكثر التلاميذ يذهبون إلى المدرسة بالقمباز والقبقاب .

وكانت الدار مستورة ، لا يرى من فيها أحداً ، ولا يراهم منها أحد ، لا نافـذة لها على الطريق ، ولا شرفة للجيران عليهـا ، وكان في البيت جـدي وجـدتي وأمي وعمتي ، وفي كل دار عدد كبير من الرجال والنسـاء والأطفـال يعيشون معـاً عيش الصفاء والوئام .

وكان عندنا جامع التوبة وهو جامع مبارك فيه أنس ، يحس داخله الطمأنينة والانشراح ، وقد أسس من أول يوم على التقوى ، ذلـك أنـه كان في الأصل خـانـاً

ترتكب فيه أنواع الموبقات ، فاشتراه أحد ملوك الأيوبيين وجعله جامعاً ، فسمي جامع التوبة ، وقد كان فيه الشيخ سليم المسوتي ولم أدركه ، ولكن أدركت من كبار تلاميذه الشيخ مصطفى الطنطاوي (أبي) ، والشيخ أبا الخير الميداني ، وأدركت كذلك الشيخ الحلواني ، والشيخ الكافي ، والشيخ البرهاني الكبير ، والشيخ دبس وزيت ، والشيخ محمود الياسين رحمهم الله جميعاً .

وكان في كل حي جامع مثله حافل بالعلماء ، عامر بالدروس ، يجتمع فيه الناس كل صلاة . من ذلك جامع القصب (السادات) والسنانية وباب المصلى والدقاق والشيخ محيي الدين والحنابلة والشيخ عبد الغني .

كانت هذه الجوامع كمجالس المديريات والمحافظات ، والجامع الأموي هو مجلس الأمة فهو مجتمع أهل البلد ، وهو المدرسة الكبرى ، وفيه تكون المذاكرة في كل أمر ، ومنه يصدر كل قرار ، وكانت الحلقات دائمة فيه لا تنقطع ، حلقات الفقه والحديث والوعظ ، أذكر منها حلقة المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني ، والمحدث المسند الكبير السيد محمد بن جعفر الكتاني ، وشيخنا الشيخ صالح التونسي ، وشيخنا الشيخ الكافي ، والشيخ اليعقوبي ، والشيخ الإسكندراني والشيخ النويلاتي ، والشيخ توفيق الأيوبي ، والشيخ خالد النقشبندي ، والشيخ الجوبري ، والشيخ القابوني ، والشيخ هاشم ، وكلما مر بدمشق عالم ألقى درساً في الأموي : السيد رشيد رضا ، والشيخ عبد الحي الكتاني ، والسيد الخضر الحسين ، والشيخ البلغيثي ، وأمثال هؤلاء ممن لا أذكر الآن .

وكان هؤلاء العلماء هم مرجع الناس في أمور دينهم وأمور دنياهم ، يسألونهم ويقبلون منهم ، ويصدرون عن رأيهم ، وكانت كلمتهم مسموعة ، وكان رأيهم نافذاً .

وكان الحي كأنه دار أسرة واحدة فكان أهله شركاء في الفرش والآنية ، إن

احتاج أحد إلى شيء قرع باب جاره فاستعاره ، وإن كان فرح أو كان مأتم ، اشتركوا جميعاً في البذل وفي العمل وفي العاطفة .

وكان الرجل يعتبر نساء الحي كلهن أهله ، ويحفظهن ويغار عليهن كغيرته على أهله ، وكانت كل امرأة تنظر إلى نساء الحي نظرها إلى أهلها ، تقدر كل كبيرة تقديرها لأمها ، وتعطف على كل صغيرة عطفها على بنتها .

وكان في مدخل كل حارة سمان أو عطار من طبقة (الزكرتية) ، وهم (كانوا) أهل المروءة والنخوة ، وكانوا أشبه بطبقة الفرسان في أوربة ، ووظيفة هذا السمان أو العطار ، أن يراقب الحارة ، فإن رأى شاباً غريباً في الحي سأله من أين ؟ وإلى أين ؟ وإن خرجت امرأة وحدها ، يراقبها يرى أين تذهب وحدها .

وكان نساء الحي جميعاً بالحبرة (الملاءة) المزمومة ، الساترة ، وكان على الوجه المنديل الخشن ذو الثقوب ، وكانت المرأة المتعبدة تلبس الإزار الأبيض ، وكانت الحبرة عامة حتى إن النساء النصرانيات واليهوديات كن يلبسن الملاءة ولكن بلامنديل ، فكان الفرق بينهن وبين المسلمات أن الوجه منهن مكشوف ، أنا أعرف ذلك وكان على أيامي .

وكنا نسمع أن في البلد قليلاً من نساء الأتراك ومن يقلدهن من المتفرنجات يلبسن بدل الملاءة (الخراطة والفجة) وكانت هذه هي نهاية الموضة وغاية التفرنج في تلك الأيام .

وكانت المرأة لاتخرج إلا باللباس الطويل الذي يصل إلى نصف الساق ، وكانت تستحي البنت أن يراها أبوها في البيت بالكم القصير ، أو بالصدر المكشوف ، ولاتظهر بزينتها إلا أمام زوجها ، وكانت الزينة بالأبيض وقليلٍ لا يرى من الأحمر ، وبصبغ الحواجب وتزجيجها ، أما أحمر الشفاه فلم يكن معروفاً .

وكان الشعر طويلاً ، يتفاخر النساء بطوله ، ولم تكن موضة قص الشعر ، ولم تكن المرأة تظهر لسلفها ولا يرى الرجل وجه امرأة أخيه ، لأنه أجنبي عنها شرعاً ، إلا بمخلص شرعي ، ونحن الآن نعمد إلى هذا المخلص في أسرتنا ، وذلك أن تأتي ببنت رضيعة فيزوجها أبوها من أخيك ، ثم ترضعها زوجتك فتصير امرأتك حماة أخيك ، ويجوز له أن يراها ؛ أو أن تأتي بصبي فيزوجه أبوه من أخت زوجتك وترضعه زوجتك فتصير أخت زوجتك كنتك ويجوز أن تراها .

وهذا عند الاضطرار ، وربما يقول قائل إنها حيلة شرعية ، والجواب أن امرأة أخيك لما صارت حماتك حرمت عليك ، فلم يعد يجوز لك أن تقترن بها ولو مات أخوك ، فصرت بذلك محرماً لها .

وكانت البنت تتزوج في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة والشاب يتزوج في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة فلا يبلغ الثالثة والعشرين حتى يكون قد استقل بعمله ، أو صار شريكاً لأبيه ، وصار له مورد ، وصار له أولاد ، ولم يعد كلاً على أبيه ، بل صار هو الذي يساعد أباه .

وكان الناس يتركون أعمالهم ويغلقون دكاكينهم من بعد صلاة العصر ثم يذهبون إلى السيران في صدر الباز أو الربوة أو مصطبة الهبل[1] ينصبون سماور الشاي ، ويبردون البطيخة في النهر ويتعشون جميعاً ، الرجل مع أهله أو مع أصحابه ثم يصلون المغرب ويعودون إلى دورهم .

قد أدوا حق أنفسهم بالراحة والمتعة ، وحق أهليهم بالكسب والإنفاق ، وحق الله بالطاعة والعبادة ، لا يهتمون بسياسة ولا رياسة ولا يتصلون بالحكومة إلا إن عرض عارض أو ألمت ملمة . وما الحكومة ؟ الوالي والمشير والدفتردار ومدير الشرطة ومدير المعارف ، وأعوان لهم لا يتجاوز عددهم جميعاً الخمسين .

(١) أقيم مستشفى المواساة على مصطبة الهبل .

ولم تكن في الشام جريدة عامة تباع علناً ، كانت جرائد تطبع أعداداً قليلة ترسل للمشتركين ، ولم يكن شيء من هذه المجلات المصورة ، ولا هذه الروايات ، ولا هذه الكتب العامة ، وكان الناس يفرقون بين الحلال والحرام ، وإن توقفوا سألوا العلماء ، ولم يكن التجار يأخذون رباً ولا يعطونه ولا يمنعون زكاة ولا يبخلون بإحسان ، فكان الفقراء في راحة ، والأغنياء في سلام .

ولم يكن الاصطياف معروفاً فكان الرجل يأخذ أهله إلى دمر أو الجديدة أو بسيمة يومين أو ثلاثاً ، ثم يعود ، وليس في هذه القرى قهوة مفتوحة ولا ناد ولا كازينو ، إنما هي الغياض وأطراف السواقي وشعفات الجبال ، ثم إذا كان وقت الصلاة أذن المؤذن وأم الإمام ، ولقد كان يجتمع في سهل العين الخضراء ، في صلاة المغرب أكثر من ستة صفوف فيها ستمئة مصلٍ ولا يتأخر عن الصلاة أحد .

وكانت المصايف البعيدة ، قرى منقطعة ، وأنا أعرف بلودان وهي ضيعة مافيها بناء جديد ، وأعرف عين بقين ، وهي منحدر حوله الشوك لاتصل إليها المعزى إلا بمشقة .

ومأدري بعد ، ماوقع هذه الصورة في نفوسكم ، ولكن الذي أدريه أن هذه هي ملامح عن دمشق التي عرفتها وأنا طفل من نحو خمسين سنة ، فانظروا إلى أين مشينا في هذه السنين الخمسين ؟

لقد ربحنا شيئاً كثيراً وخسرنا شيئاً كثيراً فاحسبوا أنتم لتنظروا ماالذي ربحناه ومالذي خسرناه .

على سفوح جبل الشيخ

نشرت سنة ١٩٦٤ م

يا أخي عبد اللطيف إني أشكرك ، لقد كنت أعرف بلدي فزدتني معرفة به ، وكنت أحبه فصيرتني أكثر حباً له ، وكنت أظن أن الشام أجمل بلاد الدنيا ، فأريتني أمس أنها أجمل مما كنت أظن ، وأشهدتني من جمالها ما لم أكن شهدت ، أفليس عجيباً أن أكون ابن دمشق ، وأني لا أزال من خمسين سنة ، أتسلق جبالها ، وأهبط أوديتها ، وأتيمم ينابيعها ، وأجول في قراها ، حتى حسبت أني (قرأت) كل صفحة في (كتاب) جمالها ، وكل جملة في حواشيها ، وأني عرفت كل بقعة من بقاعها ، فتأتي أنت من حلب لتثبت لي أني لا أزال أجهل الكثير من بهائها ، والأكثر من ثرائها .

أخذتني أمس لأزور هذه الجنات التي خصصتها بـ (مشروعك) ، وطلبت إلي أن أكتب في وصفها ، لتقدم بالوصف الأدبي الكلام على (المشروع) العلمي ، استجابة منك لناحيتي نبوغك : فنك وعلمك .

ولقد خشيت ألا أحسن الوصف ، فحاولت أن أعتذر ، فلما تمت الزيارة ، لم أعد أخشى أن يكون وصفي ناقصاً ، لأني أيقنت أني عاجز عن وصفها أصلاً .

أنا أعرف هذا الإقليم : (إقليم البلان) . من زمان . ولقد كنت معلماً في (زاكية) من أكثر من ثلث قرن ، ثم صرت قاضياً في قطنا ، قصبة الإقليم ، فجزت بقراه ، ووقفت على مرابعه ، وشربت من ينابيعه ، ولكني لم أحط به كله ، ولم استقرىء متعاته ، حتى أخذتني إليه أمس ، وسلكت بي طريق

(القنيطرة) حيث الفضاء الأرحب ممتداً على جانبي الطريق ، والأرض المخضرة تصل إلى الأفق ، حيث تلتقي الأرض بالسماء ، وإذا بنا نميل عن الجادة ثم ننحدر ، فإذا الستار ينحسر فجأة عن عالم من المفاتن كان مخبوءاً مستتراً ، وإذا الأرض التي كانت منبسطة قد تلوت وتجعدت فصارت أودية ضحلة وتلالاً ، وصخوراً تخفي وراءها زهوراً .

كانت من قبل سهولاً مكشوفة كحقائق العلم ، فغدت جناناً مطوية ، ومفاتن غامضة كصور الحلم ، لا تتقدم في الطريق مئة متر ، حتى يتبدل من حولك المشهد ، فإذا أنت في دنيا جديدة ، وفتنة جديدة ، معرض للصور ، لا تقف فيه على صورة تحسب من روعتها الجمال كله فيها ، حتى تجد إلى جنبها صورة أخرى ، ليست تشبهها ولكنها لا تقل في جمالها عنها .

ها هنا مدرج من الرفارف الخضر ، يستدير من حول ينبوع فيه الخمر وعلى جنباته السحر ، تخطر أشجاره المثمرة ، على تلك السفوح المخضرة ، كما تخطر صبايا الضيعة على طريق العين .

فإذا درت من حول الهضبة رأيت بستاناً كأنه سرق من الغوطة ، ثم تعب السارق من حمله ، فألقاه في ذلك الوادي ، فإذا نزلت الوادي ، أبصرت نهراً متحدراً جياشاً ، تتكسر مياهه في شعاع الشمس ، فتبرق إذ يلتف من حول التل ، مثل بريق عقد من الألماس حول عنق الناهد الحسناء ، وهل في الدنيا ناهد ليست حسناء ؟

فإذا صعدت في الجبل ، تجمعت لك المشاهد كلها ، حتى تأخذ ببصرك الوادي كله ، فترى القرى متمددات على السفوح تمدد الحصادات (الفاتنات) على بساط الكلأ عند الظهيرة ، والبيوت متجاورات تحت الصخرات ، دانيات كأنها تتناجى مثل تناجي المحبين عند العشية ، قبل لحظة الوداع .

والمآذن شامخات ، كأنهن أصابع ممتدات ، تشهد أن لا إله إلا الله .

وفي كل جهة عين ، وعلى جنب كل درب ساقية ، وفي كل ناحية شلال يتدفق .

صحيح والله يا أيها القراء ، فلا تحسبوه خيال شاعر ، أو غلو أديب .

يسرع ماء الشلال إسراع المحب إلى موعد لقاء ، وللسواقي خرير كأنه وشوشات العشاق بعد طول فراق .

ووراء ذلك كله الوادي العظيم : (وادي بحيران) ، بأشجاره المثمرة ، ومياهه المتحدرة ، وجوانبه المخضرة المزهرة ، ينتهي بشق ضيق ، بين صخرتين هائلتين ، من صخور المرمر ، تقومان شامختين كأنها جانبا الباب ، في قصة (الغار المسحور) الذي يسكنه الجن .

ولقد سرنا على كتف الوادي نشرف عليه من عل ، كأننا نراه من طيارة ، وعلى كتفه الذي كنا نسير عليه ، سهل منبسط أخضر ، أما الكتف الثاني للوادي ، فإنه يحمل عليه الجبل .

ثم صعدنا نمر بالقرى العامرة ، حتى بلغنا (قلعة جندل) حيث تصطف بيوت القرية مثل صف الجند ، والقرية قاعدة في لحف الجبل على علو (١٥٠٠) متر ، عن وجه البحر ثم صعدنا ، وصعدنا حتى وصلنا إلى (بقعسم) ، فإذا تحتنا منظر يعجز عن وصفه هذا القلم الضعيف ؛ ينحدر الجبل من تحت أرجل القرية ، مثل انحدار الماء من شلالات تل شهاب ولكنه فم الوادي وشفتاه صخرتان كأنها عمارتان .. ثم السهل الواسع الذي يذكرك مرآه بسهل البقاع من عند (المريجات) كل بقعة منه بلون وفيه تلال تتعاقب كأمواج بحر ، قد جمدها الشتاء ، ثم صارت يابسة ، ثم جاء الربيع فكساها حلة لها طراز .

أما الإطار البارع لهذه اللوحة كلها ، فهو (جبل الشيخ) ، هذا الشيخ الذي بيضت هامته الأيام ، فصار شعره مثل (الثلج) . فحيثما توجهت من عرنة التي فيها ثلاثمئة عين ، إلى ريمة ، إلى القلعة ، إلى بقعسم إلى كفر حور ، إلى عين الشعرة ، التي كان من حقها ، لروعة منظرها ، أن تسمى (عين الشعراء) حيثما توجهت رأيت هذا (الثلج) الذي يغطي رأس الشيخ ، ماثلاً لك من فوق رأسك .. وإذا وقفت في المرجةفي دمشق أبصرته ماثلاً لك ، أبيض نقياً ، وأنت في دمشق . أما عيونه فتراها أنى سرت في عينيك[1] ، كلها من بركات هذا الشيخ ، ومن بركاته هذه الرقة في جوه ، التي غدا بها مصيفاً يفضل مصايف الزبداني ، لا تشعر فيه بالحر ولا تستثقل فيه لذع الشمس ، ولو كانت شمس تموز وآب .

وإذا أنت أردت أن تعرف طيب أرض ، فاقرأ خبرها في وجوه أهلها ، والدليل على طيب هذا الإقليم ، إقليم البلان (منطقة وادي العجم) هذه الصحة المتدفقة من أجساد أهله ، وهذا الشباب النضر وهذه الخدود الحمر ، في وجوه شبانه وصباياه ، فإذا علمت أنهم فقراء ، وأن كل ما عندهم من الغذاء ، أنهم ينشقون هذا الهواء ، هواء هذا الإقليم ، ويأكلون الخبز المعجون من دقيق قمحه ويشربون اللبن المحلوب من ضروع مواشيه ، علمت أي مصدر صحة ومبعث قوة ، هذا الإقليم الطيب .



هذه الينابيع التي يراها الشاعر فلا يرى فيها إلا صفاء مائها ، وبريق حصاها ، الذي يبدو من صفاء الماء ، كأنه اللؤلؤ تحت (العدسة المكبرة) في يد

(١) عين سلطان علوها ٩٠٠ متر ـ وحرارة مائها ١٥ درجة مئوية ومقدار مائها ١٦ لتراً في الثانية . وعين الوادي ١٣٧٥ ـ ٨ وعين الجوزة ١٤٥٠ ـ ١٣ ـ ٩ وعين حقل ١٤٥٠ ـ ٨ قبو السلطان ١١٠٠ ـ ١٣ ـ ٣,٧٥ وعين دربل ١٣٠٠ ـ ١٣ ـ ٢٠ وعين الشعرة ١٣٢٥ ـ ١٤ ـ ٥,٢٥ وعين الشرقية ١٠٨٠ ـ ١١ ـ ٩,٥ وعين المزرعة ١٣٢٥ ـ ١٥ ـ ١٨ ورأس النبع في قطنا ٩٠٠ ـ ١٦,٥ ـ ٢٠ إلخ . إلخ .

الصائغ ، والتي يردها العطشان فلا يحس إلا طيب ريها ، وبرد مائها الذي لا تستطيع يد أن تبقى فيه خمس دقائق

رأيت أنت فيها القوة التي أودعها الله فيها والسر الذي وضعه خلالها .

إن هذا الشلال الذي نراه في النهار تتكسر أشعة الشمس على مائه فيلمع فيه مئة ألف حجر ألماس نمر به في الليل فلا نرى شيئاً أشد منه رهبة ، ولا أبعث على الخوف ، نظن من سواده ودويه أن فيه مئة ألف مارد ، مع أن النور مخبوء في طيات هذه الرهبة التي تسود الظلام .

إن فيه نور الكهرباء خبأه الله فيه ، وأعطانا العقول وقال لنا : ابحثوا واكشفوا ، فلما استخرجنا نور الكهرباء من شلال الماء حسبنا أننا نحن أوجدناه ونسينا خالقه الذي أودع فيه هذه الأسرار ، فكنا كذلك (البدوي) الذي لم ير في عمره إلا الصحراء ، فاستأجروا له داراً حديثة ، فيها الماء يجري حاراً وبارداً ، والكهرباء يظهر مصابيح مضيئة وثلاجات مبردة ، ومواقد مدفئة وفيها الراد والرائي[1] .. فلم يدر بشيء من ذلك ولم يعرف ما هو ، وطفق يشعل سراجه في الليل ، ويملأ جرته من العين حتى وقعت يده (بالمصادفة) على (الحنفية) فسال الماء وعلى (المفتاح) فسطع في المصباح الضياء ، فاغتر وظن أنه هو الذي أسال الماء من الحديد ، وأشعل النور في البلور ، ونسي فضل صاحب الدار ، وأبى أن يعرف له حقه ، وأن يدفع له أجرة داره .

هذا مثال من يكفر بربه منا ، لأننا حطمنا الذرة وأطلقنا الصواريخ ، ونسى أن الله وضع في الهواء القدرة على حمل الطيارات ، وفي الذرة هذه الطاقات ، من يوم خلق العالم ، كما مدد صاحب الدار ـ التي استأجرها البدوي ـ

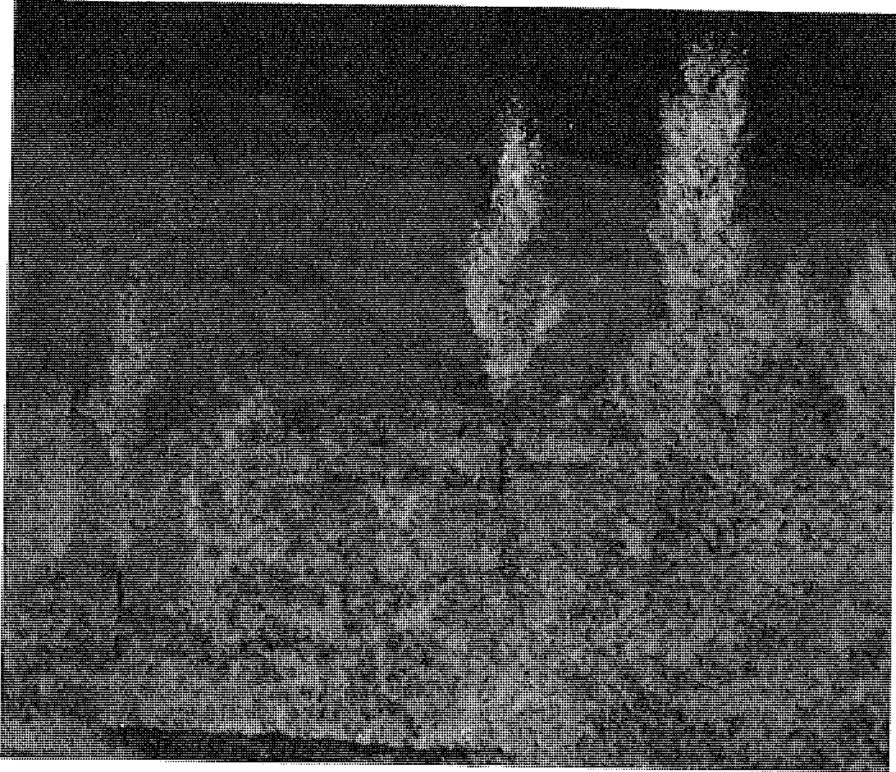
---

(١) الراد (اسم فاعل من رد) هو (الراديو) لأنه يرد الصوت الذي بعثه المذياع أمواجاً في الفضاء .

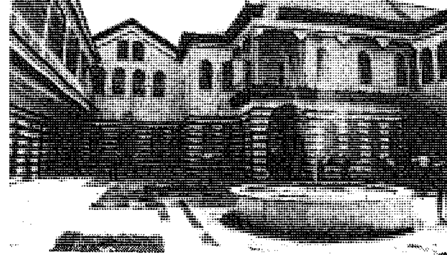
أنابيب الماء وأسلاك الكهرباء ، من يوم بنى الدار ، وكان أولى بنا أن نخجل من تأخرنا بكشفها ، لا أن نغتر بوقوفنا عليها . وأنا أعرف عين بقين ، في وعرة متحدرة ، لا تستطيع العنزة أن تصل إلى ينبوعها ، وأعرف بلودان وما فيها إلا أكواخ ولا يصل إليها إلا الأبطال و (كشافة) الجبال ، وراكبو البغال .

ولكني أرجو حين تحل الحضارة في هذه البلاد ، ألا يحل معها الفساد ، وأن تبقى لها هذه الفطرة النقية ، وهذه الأخلاق العربية .

والسلام عليك يا أخي ورحمة الله .



مكتب عنبر



مقدمة كتاب طبع سنة ١٩٦٣ م

هذه فصول من كتاب (مكتب عنبر) الذي نثرت الأيام صفحاته ، وشتتت فصوله ، كتبها أخي الأستاذ ظافر القاسمي وكرمني حين كلمني في التقديم لها ، وشرط عليّ أن أجنب المقدمة الحديث عنه ، أو الثناء عليه .

ولقد قبلت ،

قبلت لأن كتاب (مكتب عنبر) فتح لي باباً ألج منه إلى أطيب ذكرياتي ، وطريقاً أعود منه إلى أحلى أيام حياتي .

مع أن هذا الكتاب فصول قيمة من كتاب (مكتب عنبر) وليست هي الكتاب . إن لمكتب عنبر في تاريخ المكرمات كتاباً كبيراً ، ولكن تلاميذه تقطّعوه بينهم ، فمنهم من ذهب بالصحيفة الواحدة منه ، ومنهم من راح بالصحائف الكثر ، ومنهم من لم يخرج منه بشيء ، ومنهم من حمل منه شيئاً فأضاعه في زحمة الحياة ، وعاد فارغ اليدين .

فإذا أردتم أن تقرؤوا (الكتاب) كله ، فدوروا عليهم جميعاً ، لتجمعوا صحائف الكتاب .

لقد عاش (مكتب عنبر) من أواخر القرن الذي مضى ، إلى أوائل الحرب الثانية ، وهو يضم جمهرة المتعلمين في هذا البلد . كان هو الثانوية الرسمية المفردة في دمشق ، فكان يمرّ عليه كل شاب في دمشق . يدخل إليه ثم يخرج منه فيعلو في

مدارج الحياة . أو يغوص في أوحالها ، حتى ما تكاد تجد اليوم كبيراً في دمشق ، ولا صاحب اسم ، ولا ذا منزلة ، إلا وقد جاز يوماً بـ (مكتب عنبر) .

ولقد كان من تلاميذه رجال ، لو عاشوا كلهم إلى الآن ، لكان أصغرهم اليوم في الخامسة والسبعين . هم الذين كنا ندعوهم رجال الرعيل الأول ، وكانوا هم أول من رفع صوته بذكر العربية على عهد الاتحاديين من الترك[1] . وتسلسلت القوافل من بعدهم ، تجوز كلها بهذه الواحة الظليلة ، تستمتع بزهرها ، وتجني من ثمرها ، قبل أن توغل في صحراء الحياة .

فإذا أردتم أن تنشقوا الآن ريّاها ، وتتعللوا بعد فقدها بذكراها ، ففتشوا كل من تلقونه من رفاق الصبا ، علّ معه نفحة من وردها ، أو عنده لمحة من عهدها .

سائلوهم جميعاً عن (مكتب عنبر) ، فإن لدى كل واحد منهم طرفاً من حديثه ، وفصلاً من تاريخه ، فأمسكوا بأطراف الأحاديث تجيء في أيديكم فصول الكتاب : وهيهات ! بعد ما فات منها ما فات ، ومات من حملتها من مات !

ويا ليتني أستطيع أن أروي لكم الفصل الذي حفظته من ذلك التاريخ الطويل ! لقد عشت فيه ست سنين ، كانت أحفل سني حياتي بالعواطف ،

---

(١) وما كان الترك العثمانيون الأولون أمة سوء ، ولقد تسلموا الحكم والأرض الإسلامية مزق مرقعة ، ورقع ممزقة ، في كل مدينة ملك ، وعلى كل رابية علم ، مماليكها ملوكها وعبيدها سادتها ، فأقاموا للإسلام دولة كانت ثالثة الدولتين الكبيرتين : الأموية ، والعباسية في صدر تاريخها . دولة بسطت يديها على ما بين فارس والنمسا ، وأدرنة وصنعاء ، وكان منها أول الأمر ملوك صالحون كبار ، ثم خالف آخرها سيرة أولها ، ودب الفساد إليها من يوم تركت قوانين الإسلام الذي كان به وحده عزها ، وأخذت قوانين أعدائها . حتى كان عهد الاتحاديين ، فكانوا قوماً كفرة فجرة ، لا يرضى بحكمهم مسلم تركي ، بله المسلم العربي ، الذي حرصوا على تجريده من عربيته ، كما حرصوا على إخراجه من إسلامه .

وأغناها بالذكريات ، وكانت لنفسي كأيام البناء في تاريخ الدار ، لو عاشت الدار بعدها ألف سنة لكانت كلها تبعاً لهذه الأيام ، التي يرسم فيها المصوّر ، وتخطط الغرف ، ويرسى الأساس .

فكيف أدخل ست سنين ، بطولها وعرضها ، في عشر دقائق ، هي مدة تلاوة هذا الفصل ؟

كيف أجمع البحر في كأس ، وأحصر الدنيا في صندوق ؟

☆ ☆ ☆

لقد عشت فيها من الصف السابع إلى الثاني عشر ، ما تأخرت ولا (رسبت) . ولكنها لم تكن ست سنين ، إلا بحساب التقويم المعلق على الجدار ، وهل يقاس الزمان بالأشهر والأعوام ؟

إن ليلة الصيف تمتد في تقدير عقارب الساعة عشر ساعات ، سواء في ذلك ليل العاشق الناعم بالوصال ، وليل السجين المكبل بالأغلال ، مع أن ليلة الوصال في الحقيقة لحظة ، ولحظة العذاب دهر طويل . وهذه هي نظرية النسبية إن كنتم سمعتم بها .

لقد تعلمها (آنشتاين) من ابن زيدون حين قال :

إن يطل بعدك ليلي فلكم ... بت أشكو قصر الليل معك

ست سنين ، ولكنها كانت هي العمر .

لقد عشت فيها في دنيا لم تعرف الغش ، ولا الخداع ، ولا زيف الصداقات . لم يكن يتقدم فيها إلا الجاد العامل من الطلاب ، ولا يتأخر إلا الخامل الكسول ، ولا يعلو أحد درجة إلا إذا ثبت بالامتحان ، أنه أهل لهذا العلاء .

فلما فارقت تلك الحياة ، ودخلت حياة الناس ، عرفت (يا أسفى !)

ماالغش ، وماالخداع ، ولكني لم أستطع أن أغش أو أن أخدع ، فكنت الضحية لكل خادع غشاش !

لقد رأيت هذه الحياة لجة ، (يرتفع) فيها التبن والبعر ، و(ينزل) فيها الذهب والألماس[1] .

قد اضطربت فيها الموازين ، واختلت المقاييس ، ونفق المنافقون ، وكسد الصادقون الصالحون !

☆ ☆ ☆

ولكن من قال إنها كانت ست سنين ؟ كيف وكل ساعة منها ، بما حفلت به من جديد الأحاسيس ، وطريف العواطف ، كانت كأنها شهر ، وهأنذا في محكمة النقض من عشر سنين كوامل ، لم أجد فيها كلها ـ لخلوها من العاطفة ، وفراغها من الشعور ـ إلا يوماً واحداً يتكرر ، يوم واحد ، أمسه كغده ، وصباحه كمسائه ، ساعات تمر ، ما فيها شيء !

☆ ☆ ☆

كذلك كنت يا أخي الأستاذ ظافر لما شرعت أقرأ أصول كتابك عن (مكتب عنبر) التي تلطفت فبعثت بها إليّ .

لقد كنت من السأم والملال ، كأني في ظلام السينما ، فطلعت عليّ هذه الفصول طلوع الفلم ، الذي يعرض عالماً كاملاً ، أبصره وأسمعه وأعيش في أحداثه .

لقد حركت بها سواكن نفسي ، وبعثت لي ذكريات أمسي ، وهزتني هزّاً ، حتى لقد أحسست كأن قد عادت لي مواضي أيامي .

وهل تعود الأيام الماضيات ؟ .

---

(١) هي الألماس لاالماس كما يكتبها أكثر الكتاب .

لقـد كان عهـد مكتب عنبر ، جنّتي التي خرجت منهـا ثم لم أعـد إليهـا ، فرجعتني إليها يا أخي ظافر بكتابك ، أطير من فوق أسوارها العـاليـة ، وأبوابها الموصدة ، بجناحين من ذكرى وخيال ، حتى أدخلها مرة ثانية ، فأعيش فيها ، في حلم ممتع فتان .



إن مدرسي الإنشاء ، ومحدثي الإذاعة ، لا يكادون يلقون أحداً حتى يسألوه : ما هو شعورك ؟

كلمـة حفظوهـا ، فهم يرددونهـا ، لا هم يـدرون عم يسـألـون ، ولا المسـؤول يدري بم يجيب !

فهل تحب أن أتبع أسلوب مدرسي الإنشاء ، ومحـدثي الإذاعـة ، فـأخبرك من غير أن يسألني أحد كيف كان شعوري ، لما قرأت كتابك ؟

أعرفت البدوي العاشق ، الذي طالما أنس بلقاء المحبوب على غفلـة الرقيب ، في ظلال الخيمة المنفردة ساعة الأصيل ، وعلى شط الغـدير الصـافي عنـد العشيـة ، وعلى سفح التل البعيد في ضوء القمر ، والليل يغلّف بسكونه همسات الغرام .

ليالي رأى المنى ماثلات أمامه ، لما رأى حبيبه معه ، واللذائذ كلها في يديه ، والماضي والمستقبل قد احتواهما هذا الحاضر ، فلم يعد يذكر فيه ما كان ، ولا يفكر فيما يكـون ، ثم يتفرق الشمـل الجميـع ، وينــأى الحبيب القريب ، ولا يبقى من مرابع الحب إلاّ الأطلال المـواثـل في القفرة الخـاليـة ، قـد جفّ الغـدير ، وهـدّت الخيام ، ورحل الأحبّة .

ماذا يكون شعوره حين يجيئه من يحمل إليه رسالـة من ليلاه ، فيهـا بشـارة باللقاء ، ووعد بالوصل .

هذا هو شعوري لما قرأت هذه الفصول .

غير أن البدوي يأمل أن يرجع الحبيب ، وتعود أمسيات اللقاء ، وأنا أعيش بلا أمل ولا رجاء !

وهل أرجو أن يعود لي أمسي الذي مضى ، وآمل أن يرجع شبابي الذي ولّى ؟

وليست عشيات الحمى برواجع   عليك ولكن خلّ عينيك تدمعا

☆ ☆ ☆

وبعد فيا أخي ظافر !

إنك لم تستوف في هذه الفصول أخبار مكتب عنبر كلها ، ولكنك فتحت بها للناس باب الذكريات ، فما يقرأ تلميذ من تلاميذ المكتب خبراً مما رويت ، حتى يذكر خبراً مثله ، يرويه ويحدث به .

لقد مرّ بمكتب عنبر آلاف من التلاميذ ، فما كان فيهم من هو أوفى له منك ، إذ سجلت ما عرفت من تاريخه ، وحملت غيرك على ذكر مالم تعرف .

ولقد كنا جميعاً في هذا المكتب ، ولكن اختلفت تواريخ وجودنا فيه ، ووجهات نظرنا إليه ، فتعددت قصته بتعدد تلاميذه ، فصار لكل تلميذ فيه قصة جديدة ، فهل أروي طرفاً من قصتي فيه ؟

لقد كلفت أن أقدم لهذا الكتاب مقدمة أعلم أنه لا لزوم إليها ولا داعي لها ، فمالي قد جاوزت حدّي ؟ وجئت أشغل القراء بحديثي .

وما للقراء وحديثي أنا ، ولهم فيما حدث به المؤلف فأجاد وأفاد ، وجمع فأوعى ، ما يغني عن حديثي .

لا ، ما أردت أن أشارك المؤلف في كتابه ، ولا أن أدخل معه في موضوعه ، ولكنه أثار في نفسي ألف ذكرى ، وبعث فيها ألف صورة ، فاضطرني إلى أن أنفّس عن نفسي ، بالإشارة إلى بعضها .

فهل يأذن لي القراء أن أسوق إليهم طرفاً من حديثي في مكتب عنبر .

وكان موعد دخولي المكتب سنة ١٩٢٠ م ولكني لم أدخله إلا بعد ذلك بسنتين ، ما قصرت عنه سني ، ولا عاقني عنه كسلي ، ولكن طال إليه طريقي .

ذلك أننا شهدنا في سنتين اثنتين ، مولد انقلابين ، وموت حكومتين ، أدركنا عهد الترك ، ورأينا ذهاب الترك ، وعشنا في حكم فيصل ، وأبصرنا انهيار حكومة فيصل ، فكانوا كلما جدّت حكومة ونحن في الصف الخامس أعادونا إلى الصف الرابع ، فلم نستقر في الصف الخامس إلا سنة ١٩٢١ م على عهد الفرنسيين ، وقد كنا فيه سنة ١٩١٨ م على أيام العثمانيين .

لقد كان أول درس حضرناه في مكتب عنبر للشيخ عبد الرحمن سلام ، فاستقبلنا ـ رحمة الله عليه ـ بخطبة رنانة ، أعلن فيها أنه غدا ذلك اليوم مدرساً للعربية حقاً .

ذلك أن من كان قبلنا من التلاميذ ، قد درسوا في العهد التركي ، فنشؤوا (إلا من عصم الله) على ضعف بالعربية ، ومن كان معنا درسوا في العهد العربي ، فكانوا أقوى ملكة ، وأقوم لساناً .

رحمة الله على شيخنا عبد الرحمن سلام ، فلقد كان نادرة الدنيا ، في طلاقة اللسان ، وفي جلاء البيان . ولقد عرفت من بعده لسن الأدباء ومصاقع الخطباء ، فما عرفت لساناً أطلق ، ولا بياناً أجلى . ولست أنسى خطبته حينما أطلّ من شرفة النادي العربي ، قبل يوم ميسلون على بحر من الخلائق ، تموج موجان البحر ، قد ملأ ما بين محطة الحجاز ، والمستشفى العسكري في بوابة

الصالحية[1] (الخسته خانة) ، وسراي الحكومة ، وحديقة الأمة (المنشية) . وكبّر تكبيرة رددتها معه هذه الحناجر كلها ، وأحسسنا كأن قد رددتها معه الخمائل من الغوطة ، والأصلاد من قاسيون . ثم صاح صيحته التي لا تزال ترنّ في أذني من وراء ثلاث وأربعين سنة ، حتى كأني أسمعه يصيح بها الآن : غورو ، لن تدخلها إلا على هذه الأجْساد !

رحمة الله عليه ، وعلى أستاذنا سليم الجندي ، الذي جاءنا بعدما فارقنا سلام ، قافلاً إلى بلده بيروت . فكنا أول تلاميذه ، والذي كرهناه لما رأيناه ، ثم أحببناه لما خبرناه . الجندي الذي مات وماأعرف تحت أديم السماء أعلم منه بالعربية وعلومها ، الجندي الذي ما رأينا مثله ، ولاأظن أننا سنرى مثله أبداً[2] .

وعلى أستاذنا عبد القادر المبارك ، الذي كان الإمام في اللغة ، والمرجع فيها ، قيد أوابدها ، وجمّع شواردها ، وحفظ شواهدها . وكان أعلم العرب بالعرب ، عرف أيامهم ، ووعى أخبارهم ، وروى أشعارهم . وكان المفرد في بابته[3] ، لا نظير له في العلماء ، تحس إذ تجالسه وتسمع منه ، كأن الأصمعي أو أبا عبيدة قد تمثّلا لك في جبته ، وكأن ما كنت تقرؤه في التاريخ ، قد عاد لك حتى رأيته بالعيان .

أما درسه ، فما حضرت (على كثرة ما حضرت من الدروس) درساً أكثر منه حياة ، وأبقى في نفس سامعه أثراً . إن نغمته لا تزال إلى اليوم في أذني ، وكلماته لا تزال في قلبي .

---

(١) ولم يكن قد فتح شارع بغداد بعد .

(٢) أطلت الكلام عنه ، في خطبتي التي خطبتها في حفلة تأبينه ، وهي في كتابي (من حديث النفس) .

(٣) يقال هو من بابة فلان : إذا كان من أشكاله ونظرائه .

كُنّا ندخل (الصف) في مثل (العراضة) : أصوات عالية متداخلة ، وضجيج صاخب مزعج . وكان المدرسون يجدون مشقة في إسكات المتكامين ، وتهدئة الصاخبين . فإذا كان درس الشيخ المبارك ، رأى التلاميذ الباب قد انفرج مصراعاه ، وبدا من بينهما جبين عريض ، من فوقه خط أبيض ، ثم ظهر وجه الشيخ وعمامته ، وجلجل صوته الذي كان يعرف من بين أصوات البشر جميعاً ، بضخامته وجهارته ، بصدر بيت من الشعر ، فيسكت الطلاب ليسمعوا ، فيخطو الخطوة الثانية فيكون في الصف ، ويتم البيت ، ويشرع بالدرس .

وكان يدرس الفقه ، يقرئنا (مراقي الفلاح) أولاً ، ثم (الأحكام الشرعية لقدري باشا) . ولكن درسه لم يكن يقتصر على الفقه ، بل كان فيه مع الفقه تفسير ، وحديث ، وقواعد من الأصول ، يسوقها بعبارات موجزة محكمة بليغة ، يلقيها ويرددها ، ويكتبها بالخطّ الثلث على اللوح ، بعرض الحّوارة[1] ، وكان يتخذ ضوابط يجمع فيها أحكام الفقه ، ومفردات الغريب ، نحفظها فلا ننساها .

ولطالما دلّنا على كتب قرأتها وانتفعت بها ، فكانت هي رأس مالي في العلم ، ولولاه ما سمعت بها .

أنا أشهد أني استفدت من المبارك أكثر مما استفدت من الجندي ، وما فتئنا نقلده ، حتى صارت لهجته في التدريس ، لهجتنا ونحن لا ندري .

ولقد أقيمت حفلة سمر في الثانوية المركزية في بغداد ، في آخر سنة ١٩٣٧ م أو ١٩٣٨ م ، لم أعد أذكر ، وقد كنت أدرس فيها ، فسأل الطلاب مدرسيهم على عادة اعتادوها ، هل يأذنون لهم بأن يقلّدوهم ؟ فمنهم من أذن ، ومنهم من أبى ،

---

(١) كان رحمه الله يسمي الحوار (الحكك) ، مع أن الذي أراه أن اسم الحوار عربي فصيح لأن التحوير هو التبييض ، كما أن اسم اللوح عربي فصيح ، والعامي الفصيح خير من الغريب المهجور .

وكنت فيمن أذن . فقام تلميذ يقلدني بزعمه ، ولكنه قلد شيخنا المبارك . فقلت : هذا شيخنا المبارك . وإذا بالتلاميذ يصيحون من الأركان الأربعة : بل هذا أنت ، هذا أنت !

فإذا أنا لطول ما حاكيت الشيخ قد صرت مثله ! أعني مثله في لهجته ونغمته ، لا في علمه . أين أنا من علم الشيخ ؟

ولقد كان يعاب على درسه أنه فوضى ، ومتى كانت الفوضى غريبة على أدبنا ؟ هذه كتب الأدب العربي ، هل فيها إلا (الفوضى) ؟ والانتقال من قصة إلى مثل ، إلى تفسير آية ، إلى حكمة لأفلاطون ، إلى أبيات من أشعار عقلاء المجانين ، إلى حكاية لا تخلو من اللفظ الفاحش والمعنى البذيء ؟

هذه كتبنا الأدبية ، فلم لا تكون دروس أدبائنا مثلها ؟

أما (البزم) فلم نقرأ عليه ، لقد قرأ عليه من جاء من التلاميذ بعدنا ، فخبّرونا أنه كان مدرساً نادر المثيل ، كان فصيح اللهجة ، بيّن الأسلوب ، تعرف ذلك من سلامه وكلامه ، إذا سألك : (كم الساعة ؟) أدركت من سؤاله أنك أمام إمام في العربية ، صارت الفصاحة له طبعاً لا تطبعاً .

ولقد اتصل حبل المودة بأَخَرَةَ بيني وبينه ، وكنت قد جافيته أولاً وناوأته ، وكتبت عليه .

ذلك أنه كان رحمه الله ، يكتب في مجلة الميزان[1] كلمات ، يتناول فيها الأدباء بالتجريح ، لا يكاد يسلم من لسانه أحد . فكتب عن الجندي أنه (يهدم للمعرّي قصراً منيفاً ، ليبني بأنقاضه كوخاً حقيراً) . فانتصرت لشيخي الجندي ، وكتبت عن البزم أنه (يعرف في النحو ما يجهله الناس ، ويجهل ما يعرفه الناس ،

---

(١) التي أنشأها الأديب العبقريّ أحمد شاكر الكرمي رحمه الله .

وأن شعره جدار من الحجارة الصلد ، ولكنها مركومة ركماً ، ليس بينها ملاط) . وكان الذي قلته حقاً .

فغاظه ذلك مني ، وكفّ عن الجندي .

وما كنت في الحقيقة إلا تلميذاً للبزم . ليس قدري من قدره ، ولا مكاني قريباً من مكانه ، وليس لمثلي أن يكتب ذلك عن مثله ، ولكنه غرور الشباب مني ، والغيرة على شيخي وأستاذي . ولعله سكت عني استصغاراً لي ، أو رحمة بي .

أما الشيخ الداوودي ، رحمه الله ، فقد كان يدرس في صفوف غير صفوفنا ، فلم أحضر عليه ، ولكن من حضر عليه يؤكد القول أنه كان له من لطفه وظرفه ، وعطفه على تلاميذه ، وحرصه على إفهامهم وتفننه في ذلك ما لا ينسونه . وكان شيخاً أبيض اللحية مريضاً . وكان يجيء المدرسة في آخر عمره على أتان (حمارة) بيضاء ، وكانت لذلك العهد مثل السيارة الخاصة اليوم . فكان ينزل عنها عند آخر الدهليز ، فيأخذ تلاميذه بيديه ، يساعدونه حتى يدخل الصف ، فيكون كأحسن مدرس عرفوه ، فإذا خرج إلى (الفرصة) لم يبق فيه قوة ، فيلقي بنفسه على الأريكة يضطجع ، يستريح إلى وقت الدرس التالي .

ولما توفي سنة ١٩٢٦ م أو قريباً منها . ألقيت على قبره رحمه الله كلمة لي ، وقصيدة لأخي أنور العطار ، وكان طالباً معنا ، وكان ينظم الشعر الجيد من تلك الأيام[١] .

لقد كان مكتب عنبر هو الثانوية الرسمية المفردة في دمشق ، بل كان الثانوية (الوحيدة) الكاملة في سورية ، فكان يأتي إليه الطلاب من كل مكان

---

(١) رحمه الله ورحم كل من ذكرت من أساتذتنا ومن لم أذكر ، مضوا جميعاً ونحن على الأثر ؛ اللهم حسن الخاتمة .

ليكملوا دراستهم فيه . فلذلك اختاروا لتدريس كل علم فيـه أكابر علمـائه . فكان من مدرسينا في الرياضيات الأستاذ جودة الهـاشمي رحمـه الله ، الـذي رأيتـه مرة بعد ما خرجت من المدرسة بسنين ، فسلمت عليـه فـابتسم لي ، فكـدت أقضي من الدهشة ـ قال : مالك ؟

قلت : لاشيء . قال : أراك دهشت . قلت : لأني رأيت عجباً ! قال : مـا هو ؟ قلت : رأيتك يا سيدي تستطيع الابتسام !

وكنا نظنه لا يبسم أبداً .

ومن منـاقبـه أنهم فتحوا بـاب تحقيق واسع ، إثر زيـارة المسيو (دجوفنيل) التي وصفها الأخ ظافر ، وأعدوا أسئلة يسألونها التلاميـذ ، ليعرفوا من دبّر الأمر ، ومن تولى كبره ، واستدعوا التلاميذ كلهم واحداً بعد واحد ليجيب عليها ، وكنت فيمن دعي ، فلمـا صرت في غرفـة المـدير ، وأخـذت القلم لأكتب ، اقترب مني ، وقال لي هامساً : (ما بتعرف شيء ، موهيك ؟)

قلت : نعم يا سيدي . وكتبت تحت كل سؤال ، لا أدري .

وتبين أن التلاميذ كلهم أجابوا بـ (لا أدري) ، وكان ذلـك بتوجيـه الأستـاذ الهاشمي ، وكان هو المدير . ومرّ الحادث على جلاله وعظمه بسلام ، ولم ينل أحداً من التلاميـذ كبير سوء . ولو كان المـدير غيره لقـوّضت المـدرسـة على رؤوس من فيها .

وكان المدير لما دخلنـا المـدرسـة شريف بـك رمو ، وهو أميرالاي متقـاعـد ، عسكري صـارم ، ثرنـا عليـه الثـورة المعروفـة ، فـولي الإدارة بعـد خلعــه المربي الكبير ، العالم الجليل ، الذي لم يف لـه هـذا البلـد ، وهو أبو (المعـارف) فيـه ، وأستاذ أساتذته ، مصطفى تمر ، ثم وليها جودة بك ، ثم وليها الأستاذ محمد علي بك

الجزائري (سمّي مدرس الفرنسية) وهو أعلى سناً وكان جودة بك من تلاميذه وله عليّ أكبر الفضل إذ أعادني إلى المدرسة بعد ما تركتها ـ للعمل والكسب ـ إثر موت أبي رحمه الله سنة ١٩٢٤ م ، رحم الله الجميع .

وكان زميله في تدريس الرياضيات الأستاذ مسلم عناية ، عليه الرحمة . ولقد سحت في البلدان ، ولقيت الرجال ، ودانيت الأذكياء من العلماء والأدباء ، ولا والله لم أجد فيمن لقيت أذكى من هذا الرجل ذكاء ، ولا أحدّ ذهناً .

لقد كان جودة بك عالماً بالرياضيات ، هضمها (كما يقولون) هضماً ، وقتلها فهماً ، وأحسن فيها تعليماً وتفهيماً ، وأعانه على ذلك سكوت الطلاب في درسه ، واستماعهم لقوله ، فأفاد واستفاد .

أما مسلم بك ، فقد كان عبقرياً من أفذاذ الرجال ، ممن لا تلد الولادات إلا واحداً منهم في كل قرن .

كان ضابطاً كبيراً من أركان الحرب عند العثمانين . وكان من أعلم الضباط بفنون العسكرية ، وكان أستاذاً في العلوم بفروعها كلها ، أستاذاً في الكيمياء يرجع إليه مدرسوها في معضلات مسائلها ، لا يكتمون ذلك عنا ، ولا يخفونه علينا ، أستاذاً في (الطبوغرافيا) ، أستاذاً في علم الموسيقى ، وكان يعرف الفرنسية ويدرسها ، والتركية وكان أديباً فيها ، والألمانية وكان يتقنها .

ولكنه كان (والحق يقال) كان على هذه المزايا كلها ، بعيداً عن التوفيق في التدريس ، عاجزاً عن ضبط التلاميذ ، له في الفوضى نوادر عجيبة ، لا يزال الأحياء من تلاميذه يروونها عنه .

لقد كان أكبر من أن يكون مدرس مدرسة ثانوية ، فعجز عن الهبوط إلى

(مستوى) عقول التلاميذ ليفهمهم ، وعجزوا عن الصعود إليه ليفهموا منه ، فبقي بينهما فراغ ، ملؤوه بالشغب والضجيج وإفساد الدرس .



هؤلاء كانوا أساتذتنا : المبارك للدين ، وإن كانت دروسه في الواقع للدين والدنيا ، والعلم والعمل ، والجد والهزل ، وما يقال في الدرس عادة ، وما لا يقال .

والجندي للعربية ، عنده العلم الغزير ، وعنده جواب كل سؤال ، وحل كل مشكلة . ولكن ليس عنده ما يغري التلاميذ بالإقبال عليه ، والإصغاء إليه ، فهو يقعد على كرسيّه لا يقوم عنه ، وما قعد المبارك على الكرسي قط ، ويلقي درسه بصوت خفيض ، بلهجة واحدة كدت أصفها بأنها مملّة ، والمبارك يفخم ويرقق ، ويجهر ويخافت ، وله صوت إذا خافت به أسمع كل من في المدرسة !

وكان الجندي ، على هذا ، إمام الأئمة ، وأستاذ العصر . أما الداوودي والبزم ، فما قرأنا عليهما .

وجودة الهاشمي ومسلم عناية للرياضيات .

والدكتور جودة الكيال ، والدكتور يحيى الشماع للعلوم ، وهي تجمع الفيزياء[1] ، والكيمياء والتشريح والنبات والحيوان وحفظ الصحة .

فلما سافرا إلى أوربة لإتمام دراستهما سنة ١٩٢٤ م أو ١٩٢٥ م - لم أعد أذكر - جاءنا الدكتور عزة الغبراء ، والدكتور صبحي راغب يدرسان في غيابهما .

وكان الأستاذ حسن يحيى الصبان يدرسنا التاريخ ، والدكتور كامل نصري يدرسنا الجغرافيا . وكان الدكتور نصري مديراً ثانياً (معاون المدير) . ثم حل

---

(١) وكان اسمها عندنا (الحكمت) ، هكذا بتاء مبسوطة .

محله الأستاذ عبد الفتاح ملحس رحمه الله ، ثم الأستاذ عبد الرحمن السفرجلاني شيخ المعلمين ، وابن شيخ المعلمين . رحم الله أباه شيخنا الشيخ عيد السفرجلاني ، وبارك في أستاذنا عبد الرحمن.الذي مدّ الله في حياته حتى رأى من تلاميذه من بلغ الثمانين .

وأشهد لقد علمونا الدين والخلق ، كما علمونا العلم ، وأفادونا بثمرات تجربتهم في الحياة ، مثلما أفادونا بدروسهم ، وكانوا لنا آباء قبل أن يكونوا معلمين .

وكان من معلمينا الذين لا ينسون : الأستاذ عبد الوهاب أبو السعود ، وكان يعلمنا الرسم ، وما كنا نبالي بالرسم ، ولا نقيم له وزناً ، ولا كان القائمون على التعليم يعدلونه بالعلوم التي يدرسها غيره من الأساتذة . ولكن عبد الوهاب يضطر جليسه أن يبالي به ، وأن يلتفت إليه ، فكيف بتلميذه ؟ لقد كان أحد رواد (التمثيل) الأوائل ، فكان يلقي درسه (وما درسه ؟) كأنه رواية (درامية) على المسرح ، فما ظنك برواية تمثل في الصف .

و إذا كان الكلام يجرّ الكلام ولو لم يكن من جنسه ، فمن الإنصاف أن أذكر رائداً آخر من رواد الرسم ، غدا اليوم مجهولاً ، وقد كان في أيامه من الأعلام ، وهو ضابط قديم ، جسيم وسيم ، علمنا كيف نرسم الأشياء ، ونقيس أبعادها ، ونضع الظلال ، ولا تزال عندنا بقية صالحة مما علمناه من نحو نصف قرن ، هو (عبد الحميد عبد ربه) رحمه الله .

ومن رواد التمثيل السابقين الدكتور أسعد الحكيم عضو المجمع العلمي العربي ، وقد ألف لتلاميذ المدرسة الكاملية روايتين وأخرجهما . إحداهما (دمنة الهندي) والأخرى نسيت اسمها . وكان لتمثيلها ضجة في دمشق ، وأنكرت ذلك مجلة الحقائق ، وجمعت الفتاوى من (المشايخ) على تحريم التمثيل ، ومن أراد الوقوف على أدلتهم التي ساقوها ، فليرجع إلى المجلد الثاني من هذه المجلة .

وتبعه بعد أكثر من عشر سنين رائد آخر ، كان يؤلف الرواية ، ويعلم التلاميذ تمثيلها ، وكان له صديق من المحامين يخرجها ويصنع المسرح والثياب من بالي الخرق ، ورخيص الورق ، فيأتي بالمدهشات ، وهذا الرائد هو كاتب هذه المقدمة ، وصديقه هو المحامي أحمد حلمي العلاف رحمه الله . وقد مثلت لهما على مسرح المدرسة الأمينية خمس مسرحيات ، وعلى مسرح المدرسة التجارية مسرحية طويلة عن (عنترة) ، وكانت كل رواية تعرض مرات كثيرة ، ويتحدث بها الناس أياماً طوالاً .

وكان يعلمنا الفرنسية أول الأمر ، فرنسي عجوز أعرج ، طويل اللحية ، أحمق ، رخو . لا يضبط صفاً ، ولا يصغي إلى درسه أحد ، وكان يسكن الدار المواجهة للمدرسة ويتحمل أذى التلاميذ صابراً . واسمه المسيو ميشيل .

ثم جاءنا مدرس لبناني الأصل ، قصير القامة ، غريب الشكل ، له شاربان دقيقان ، يخرجان من تحت منخريه ، ويمتدان إلى الأمام ، كأنها رجلا عنكبوت ، وكان يتكلم الكلمة بالفرنسية ويلحقها بترجمتها بالعربية ، بصوت ثاقب ، بنغمة ممطوطة ، ولم يطل بحمد الله مقامه بيننا .

ثم جاءنا (تريس) Trese وهو استعماري جاهل ، يبدو أنه من أجلاف الريفيين الفرنسيين ، لا يفقه شيئاً ، ولا يحسن تعليماً ولا تفهيماً . ثم جاءنا الرجل الفاضل النبيل شكري الشربجي ، فأفادنا وعلمنا . وكان يعلم في الصفوف الأخرى ، المسيو علي الجزائري ، والمسيو صالح التونسي ، أما المسيو علي ، وكنا نلقبه بهذا من أيام الشريف فيصل ، فهو رجل رقيق الحاشية ، حيّ الطبع ، مهذب اللفظ ، توفي رحمه الله من سنتين ، أما المسيو صالح ، فكان بديناً عظيم الشاربين ، جهير الصوت ناري الطبع . وكان يؤلف الجملة الواحدة ، من كلمات عربية وكلمات فرنسية ، فيقول مثلاً : Chaqu' un يقعد في بلاسه ، واللي يحكي نعمل له الـ Punition . وكانت لهجته مغربية . أخرج تلميذاً إلى اللوح ليترجم

فقال لـه ؟ (ملـك عطش ملقـامـا) أي (ملـك عطش مـا لقي مـاء) وسكن حروفها كلها ودمج كلماتها دمجاً ، ووصل أوائل تواليهـا بـأواخر أواليهـا ، فما فهم التلميذ ، فغضب وقال : (نكلموك بالعربي ما تفهم !)

وكان يعلمنا الموسيقى الأستاذ مصطفى الصواف . أما الأساتذة الشباب فقد أدركنـا اثنين منهم ، وكنـا في أواخر السنـة الأخيرة ، وكان الـدكتـور صليبـا (مدرس الفلسفة وكان قد درسها قبله الأستاذ سعيد البحرة) والأستـاذ الفصيح . وقـد صحبنـاهمـا شهوراً كنـا نحن فيهـا في أواخر طريـق التعلّم ، وهمـا في أوائـل طريق التعليم ، وما رأينا من قبلهما أستاذاً شاباً مثلنا . ما كنا نرى إلا شيوخـاً أو كهولاً كالشيوخ .

وكان في المدرسة معيدان : الأول عاصم بـك البخـاري ، والثـاني عزة أفنـدي الرفاعي ، هكذا كنا ندعوهما . وأشهد أن للأستاذ الرفاعي فضلاً على الرياضة في دمشق ، لاأجد اليوم من يذكره أو يشكره ، فهو الذي بعث الله على يـده الروح الرياضية بعد أن ماتت ، وهو الذي نشأ على يده أكابر أبطـالهـا ، رفـاقنـا : محمود البحرة عبقري الرياضة ، وحسن الهاشمي ، وأحمد سامي السمان بطل القفز العالي رحم الله الجميع .

أقام لنـا في رحبـة متروكـة كانت وراء المطبخ ملعبـاً كامل العـدة ، من غير شيء ، لفّقه من شبه العدم فجعله صالحاً لتخريج هؤلاء الأبطال .

لقد استرسلت في الحـديث والحـديث طويل . ولو كتبت كل مـا أعرف عن مكتب عنبر لما اتسعت له هذه المقدمة ، بل لضاق عنه أضعافها .

لقـد كان مكتب عنبر مثـابـة العلم ، وكان مـوئـل الـوطنيـة ، وكان مصـدر الحركات الشعبيـة ، ومبعث النضـال ، ولقـد كتب لي أن أقوده في يـوم من أعظم

أيام نضاله ، وإن نفسي لتراودني أن أقص قصة ذلك اليوم ، ويردّني أن الأستاذ المؤلف كلفني تقديم كتابه ، ما كلفني الحديث عن نفسي .

ولكن هل أتحدث عن نفسي ؟ إني أروي صفحة من صفحات كتاب (مكتب عنبر) وهل الكتاب إلا قصص من كان فيه ، ومن مرّ به ؟ أوَ لَمْ يقل (فيكتور هوغو) : أنا حين أصف آلامي أباً ، أصف آلام كل أب ، وحين أصور عواطفي في الحب ، أصور عواطف كل محب » أو لعل قائلها غير فيكتور هوغو ، أو لعله قال شيئاً غير هذا ، فما أريد الاستشهاد بشهرة القائل ، بل بصحة القول .

ثم إن المقدمة ستكون بين يدي أخي الأستاذ ظافر ، فإذا رآها طالت ، أو رأى هذه القصة أولى بها الطيّ ، فله أن يطويها ولا ينشرها .

لقد أمضيت ست سنين في (مكتب عنبر) منفرداً متحداً[1] ، أصادق الأخ والأخوين ، لا أنغمس في الحياة الاجتماعية للطلبة ، ولا أشارك في جمعية رياضية ولا فنية ، ولم أدخل حزباً من الأحزاب ، وكان الانتساب إلى الأحزاب ، شائعاً بين الطلاب قبل الثورة ، يوم كان في الشام حزبان وطنيان فقط ، هما حزب الشعب ، وحزب الاستقلال ، ثم أمسكت الكتلة الوطنية الزمام ، فكان الطلاب يصدرون عن رأيها ، وينفذون مقرراتها . وكنت في معزل عن ذلك كله ، حتى إني كنت أعتذر عن حضور (السيران) السنوي التقليدي ، وكان من العادات المتبعة ، أن يشترك الأساتذة والطلاب جميعاً فيه ، وكان موضعه الذي لا يتغير قهوة الربوة ، وطعامه الذي لا يتبدل (صفيحة وشعيبيات) أو (قوزي) عليه خروف كامل .

بل لقد زدت على ذلك فكنت لا أضرب يوم الإضراب . ولما كان الإضراب المشهور يوم زيارة (بلفور) دمشق سنة ١٩٢٤ م ـ على ما أذكر ـ ذهبت وحدي

(١) المتحد : المتوحد المنفرد .

إلى المدرسة ، ودخلت وحدي الصف ، ولم أخرج حتى أخرجني الأساتذة . وعلى شفاهم ظلال الاحتقار لي ، لمخالفتي إخواني ـ وما فعلت ذلك عن عمد ، بل كنت لانفرادي ، لا أحسّ بما كان من حولي .

لم أخالف ذلك طول أيامي في التجهيز إلا مرتين ، دعيت فيهما إلى إلقاء قصيدتي شوقي والزركلي ، في الثورة ، (سلام من صبا بردى أرق) و (الأهل أهلي والديار دياري) فألقيتهما في جماعة من الطلاب ، ولما وصلت إلى قول خير الدين :

وانظر إلى الآلاف من بسلائهم   يغزوهم مئة من الثوار

بلغت بي الحماسة مبلغها ، فثرت وأثرت ، وسمع المدير (جودة الهاشمي) رحمه الله ، فجاء وأشار إليّ أن أتم ، ووقف يسمع ، ولم يأتني منه سوء ، وكان ذلك في غمرة الثورة ، والمعارك تقع من حول المدرسة ، وربما دخلها الثوار أحياناً .

بقيت على هذه العزلة ، إلى الصف الثاني عشر . فجئت يوماً ، وكان اليوم الخامس عشر من شعبان فخبرت أن إخواننا الطلاب الليليين أرادوا الاحتفال بليلة النصف من شعبان ، فمنعهم المراقب ، فعصوه وشغبوا عليه ، وسهروا محتفلين ، فقرر طرد جماعة منهم ثلاثة أيام ، منهم أخونا أنور العطار ، ومرّ الخبر كأن لم يكن ، ودخلنا الصفوف ، وانتهى النهار ورحنا إلى دورنا ، ولم نبال بما كان ، لا أنا ولا غيري ، لأن العقاب طفيف ، والسبب هيّن ، والاحتفال بليلة النصف من شعبان ، لم يأمر به الدين ، ولم تجر به السنّة .

ونمت في موعد منامي ، لا أفكر فيا كان في المدرسة ، حتى إذا كان قبيل الفجر فإذا أنا أحسّ بفكرة تسيطر عليّ ، بلغ من قوتها أن أيقظتني من منامي ، هي أن أذهب إلى المدرسة صباحاً ، فأنتظر قرع الجرس للدرس ، فإذا قرع

وقفت على واحد من هذه المقاعد التي تحيط بالساحة فخطبت خطبة مجلجلة أدعو فيها إلى الإضراب ، أو يعاد من طرد من الطلاب .

وبقيت قاعداً أرقب طلوع النهار . فما كاد يطلع حتى وليت وجهي شطر المدرسة ، ولم يكن لي أب أستأذنه ، وليس لي أخ أكبر مني أستشيره ، فكنت أصدر عن رأي نفسي وحدها . ووجدت باب المدرسة مغلقاً ، فمررت برفيقنا في الصف محمد الجيرودي (الأستاذ النقيب) وكان يسكن في دار عند عيادة الدكتور بيازيد ، فأمضيت عنده ساعة ، وخضت في كل حديث ، ولكني لم أعرج على ما في نفسي ، ولا أشرت إليه ، وذهبنا إلى المدرسة ، فلما قرع الجرس ، وهموا بالدخول وقفت فخطبت ، وهيّجت وحمست ودعوت إلى الإضراب ، فاستجابوا جميعاً ، وما كان الفضل في الاستجابة لما ألقيت عليهم ، بل لما كان من القوة في أنفسهم ، فقد كانوا يلبون إن دعوا بهمسة يقولها قائلها ويختبىء ، فكيف وقد دعوا (لأول مرة) بخطبة معلنة ، يلقيها صاحبها ويقف .

ذلك أنها كانت أيام نضال ، كان يحكمنا فيها من ليس منا ، وكانت الثورة السورية قريباً عهدها ، وكانت الأمة كلها ، كالجنود في الثكنة ، ينامون على استعداد ، ويقومون على استعداد ، لا يسمعون نفخة بوق أو صوت الداعي ، حتى يفزعوا إلى أسلحتهم ، ويهبوا سراعاً إلى صفوفهم ، فلا ترى البلدة هادئة مفتحة أسواقها ، حتى تسمع من كل دكان صوت الغلق ينحدر ، وترى المظاهرات قد قامت ، ودبابات الفرنسيين قد نزلت ، والمعارك قد ابتدأت .

لم يكن (مكتب عنبر) في الحقيقة مدرسة ، بل كان يومئذ مجمع الشباب المثقف ولب البلد ، ومصدر كل حركة وطنية ، وكانت الإضرابات تعد في الخفاء ، لئلا يعرف من دعا إليها فيعاقب . فلما رآني الطلاب أجهر وأعلن ، لا أختفي ولا أتوارى . عجبوا مني وأعجبوا بي ، وصرت في لحظة زعيم المدرسة .

وجربت الإدارة الترغيب والترهيب ، ولجأت إلى التهديد والوعيد ، فخرج المعيد أولاً ، ثم نزل المدير الثاني ، ثم المدير الأول والأساتذة ، فكنت أرد على كل محاولة بخطبة جديدة ، فوجدوا الأمر أصعب مما كانوا يقدرون ويعرفون فخبروا الوزارة .

فجاء الوزير نفسه ، وكان أستاذنا الكبير كرد علي رحمة الله على روحه ، فلما دخل علوت على المقعد الذي اتخذته منبري وناديته ، يا معالي الوزير ، فتجاهل ومضى قدماً ، فأعدت النداء ، فما وقف ، فأسمعته كلاماً استوقفه ، ثم حول وجهه إليّ ، فسمع مني وأجابني .

وكنت يومئذ في فورة القدرة على الخطابة والارتجال ، لا أحتاج إلا إلى ابتداء الكلام حتى تنثال عليّ المعاني ، وتزدحم الخواطر ، وينطلق اللسان ، يعبر عنها ببليغ البيان ، وكنت أعيش مع الأدب العربي الصافي ، لم تفسد ملكتي هذه الأساليب الجديدة ، وكنت فتيّ الذاكرة ، كثير المحفوظ ، لم تضعف ذاكرتي الأيام ، فكانت كل خطبة كأنها قطعة أدبية من الأسلوب الفحل ، تفيض بالآيات والشواهد والأمثال ، فضعف مع الأيام جناني ، وكلّ لساني ، ولم يبق مني الآن إلا ما يبقى من المصارع العجوز ، ولا يدوم على ما هو إلا هو .

على أن فيّ بحمد الله بقية (لا تزال) تسر الصديق ، وتكبت العدوّ .

ودخل الوزير ، فاجتمع بالمدير والأساتذة ، ثم خرج شيخنا المبارك رحمه الله ، فوقف على المقعد واستهل خطبته بقوله (الآن أعطيت القوس باريها ، وأسكنت الدار بانيها ، فعودوا إلى دروسكم ، وارجعوا عن غيكم ، وإني لكم ناصح أمين) . وكان بين الطلاب فتى صغير اسمه نور الدين القاسمي ، رحمه الله ، أحسبه ابن عم للمؤلف ، فصاح : لا ندخل ، وردد الطلاب صيحته ، فاهتاج المبارك وقال : يا كاظم ، افتح الباب وكان كاظم ألبانياً صالحاً ، ففتح الباب ، وخرج الطلاب .

انطلقت العفاريت من القماقم ، ونفذنا من القباقبية إلى المسكية ، فباب البريد ، فأخذت سلماً صغيراً ، كان أمام دكان ، فارتقيته وخطبت في الناس . فوثبوا إلى الأغلاق ينزلونها ، ويلحقون بنا ، فلما وصلنا إلى سوق الأروام خطبت فأغلق التجار دكاكينهم ومشوا معنا ، فما وصلنا إلى المرجة حتى كانت البلد كلها وراءنا ، وصار كل طالب قائداً لجماعة من الناس ، وكان من أوائل من أعانني ذلك اليوم رفيقنا حسن مراد (المحامي الكبير) ، ولم أره منذ ثلاثين سنة ، ولكني واثق أني حين أراه ، ينهار هذا السدّ الذي أقامه بيننا الزمان ، فأحسّ أني فارقته بالأمس ، ولقيته الآن ، وكذلك تصنع أخوة الصبا ، ورفقة الصغر .

وقد كتب إليّ من سنين في ذيل بطاقة تهنئة بالعيد : (هل تذكر) ؟ ولم أجبه لأني وجدت السؤال لا يحتاج إلى جواب .

هل أذكر ، نعم يا أخي حسن ، وهل تظنني أنسى رفاق صباي ؟

وصرت أنا القائد لهم جميعاً ، حتى بلغنا (السراي) وأحطنا بها كما يحيط الجيش المهاجم ، بالقلعة المحصورة ، وعلوت درج العمود التذكاري ، فخطبت خطبة كلماتها من نثار الحمم ، وأسلوبها من هبة العواصف ، مجّدت فيها الحرية ، ولعنت فيها الاستعمار ، وأعدت فيها ذكر الثورة ، وقلت ما يقوله شاب متحمس هائج ، وهتفت هذه الحناجر هتافاً ارتجت منه الأرض ، وزلزلت أركان القصر ، فبرز من الشرفة رئيس الحكومة (وكان الشيخ تاج الدين) فتكلم مهدئاً واعداً ، وتفرّق الجمع ، واجتمع عليّ نفر من رجال الأحزاب والجماعات ، كل يريد أن يجذبني إليه ، ويجعلني من حزبه ، ونصح لي ناصح أن أجتنبهم جميعاً ، وأعود إلى دروسي وإلى عزلتي ، وكيف تعود الصخرة التي كانت مستقرة في قمة الجبل إلى مكانها بعد ما دحرجتها فهوت ؟ من يستطيع ساعة انحدارها أن يقف سيرها ، ويقوم في وجهها ؟

لقد أسكرني هذا الفوز فكدت أتدحرج ، فأنحدر في هذا الطريق ، لولا أن تداركني الله فأراني عاقبته ، لقد اغتررت بالحلاوة في أعلى الكأس ، فأذاقني الله طعم المرارة في أواسطها وفي قعرها .

لقد أمسكت بي الشرطة فأودعتني سجن النظارة ، فإذا أنا منفرد في حاشرة (زنزانة) طولها متر وعرضها متر ، وحيد فريد ، ليس حولي من أخطب له ، ولا من يصفق لي ، ولا أستطيع أن أضطجع فيها ولا أن أمد رجلي ، وليس من حولي إلا جدران مغلقة ليس لها نافذة ولا معي فيها أحد ، فكدت أجنّ ، ورحت أصيح فلا يرد عليّ الحارس جواباً ، وأضرب الباب حتى كاد يتمزق جلدي وتدق عظامي ولا أجد لذلك نفعاً . فقعدت أفكر .

كنت في أول النهار ، طالباً مغموراً ، يمشي في جماعة من الناس ، لا يعرفه أحد فيضره أو ينفعه ، فما جاء الظهر حتى صرت علم البلد ، وأضحيت ملء الأسماع والأبصار ، فما أمسى المساء حتى كنت سجيناً ذليلاً ، مسلوب الحرية ، معرّضاً للأذى .

هذه هي حياة السياسيين المغامرين ، يوم في الذروة ويوم في الحضيض ، يأكلون (السبت) البقلاوة ، ولا يجدون (الأحد) إلا الخبز اليابس .

إنهم كالذي يحتل مقعداً في الصف الأول من المسرح ، إنه أكبر ، والمنظر منه أجمل ، ولكن ليس له رقم ، ووراءك من ينتظر غفلة منك لينتزعك منه ، ويقعد فيه دونك ، أفليس خيراً منه مقعد في زاوية ، (مرقم) لا ينازعك فيه أحد ، تقوم منه وأنت واثق أنه لك ، تستطيع أن ترجع إليه .

وقررت في تلك الساعة ، أن أجتنب حياة السياسيين ، وألا أشارك فيها إلا من بعيد ونفذت هذا القرار .



وبعد ، فلقد كتبت هذا الذي قرأتموه من المقدمة وأنا في دمشق ، في بلدي ، بين أهلي وولدي ، وأنا رخيّ الحال ، ناعم البال ، أكاد من فرط الراحة أشكو الملال ، هأنذا أختمها وأنا بعيد ، بعيد بجسدي عن دمشق ، تفصل بيني وبينها بوادي الحجاز ورمال نجد ، بعيد عن مكتب عنبر تفصل بيني وبين أيامه ، سنون طوال ، تكاد بعد قليل تبلغ الأربعين .

فأين أنت يا مكتب عنبر ؟ رحم الله أيامك

أين أنت يا عهود الصبا ، ويا مراتع الأحلام ؟ تعالي انظري ماذا صنعت الأيام بتلك الأحلام .

ولقد زادني شجناً على شجن ، صفحة الإهداء التي بعث بها إليّ أخي المؤلف الأستاذ ظافر .

إنك لا تدري يا أخي ظافر ماذا صنعت بي هذه السطور .

لقد انتزعت قلبي من صدري ، فعادت به إلى بيوت دمشق . يا أسفي على تلك الجنات ، على تلك (الصحون) التي يبسم في أرضها المرمر ، ويضحك في (أحواضها) الزهر ، ويتربع في جنباتها الشمشير ، وتتخطر من حول بركتها صبايا الليمون والنارنج ، ولها من ثمرها مثل نهود الصبايا ، والياسمين المطيف بأغصانه من حول الإيوان ، والمليسا المتعلقة خشية السقوط بالجدران ، والدوالي التي تتمدد على السطوح ، تعمل النهار ، تستمد من حرّ الشمس ما ينضج الثمر ، وتستريح الليل لتحلم في ضوء القمر .

على تلك (المربعات) و (القاعات) و (الفرنكات) و (المصبات) ، على ذلك الفنّ الشاميّ الأصيل ، الذي قفز من فوق البحر ، فوصل الشاطىء الغربي في أسبانيا ، بالشاطىء الشرقي في الشام ، وحمل عبقرية العمران ، إلى بلاد المغرب والأسبان ، فامتلأ بسحرها كل مكان ، وبقيت فيه إلى الآن .

على دارنا وداركم ، على (مكتب عنبر) الذي كان جنّة من جنات الشام . وما كلفي من تلك المنازل بأرضها وجدرانها ، ولا بسقوفها وأركانها ، ولا بصحنها وإيوانها ، ولا بوردها وريحانها ، ولكن لهفي على من غير من سكانها .

تلك يا أخي مرابع صبانا ، وأين مني تلك المرابع ؟ سقى الله أيامها ، أين وبيني وبينها البيد والصحارى ، وبيني وبينها عمر ، تقضّى أكثره ولم يبق منه إلا الأقل ، وحياة كان أجمل ما فيها تلك الأيام العذاب .

هذا يا أخي المكان ، فأين السكان ؟ أين أهلي وأهلك ، أين مجلس أبيك في قاعة درسه ومجلس أبي ، أين المدرس وأين التلاميذ ؟ وأين أولئك النساء ، أين صخب حديثهن ، وقرع قباقيبهن على مرمر الدار ؟ وتجاوب ضحكاتهن في أرجائها ؟ أين الأولاد ومرحهم وعدوهم ، وتراشقهم بماء البركة ، وتسلقهم عرائش الدوالي ؟

لقد تفرق الشمل المجتمع ، وخلا المكان المزدحم ، لقد أخذتهم يد الموت واحداً بعد واحد .

و (بقيت وحدك بعدهم ، تعيش في الماضي على قصره ، أكثر مما تعيش في الحاضر على طوله) .

مافي الديار مخبّر إلا صدى لمصوّت

ناديت : أين أحبتي ؟ فأُجبت : أين أحبتي ؟

هل تصدق يا أخي ظافر أني وقفت عند هذه الجملة من صفحة الإهداء ساعة كاملة ، معجباً مفكراً معتبراً .

ذكرت من مضى من أهلك ، فأذكرتني من مضى من أهلي ، وحننت إلى ماضيك ، فأثرت في نفسي الحنين إلى ماضيّ ، فجمعت عليّ غربة المكان وغربة

الزمان ، وحملت روحي إلى دمشق ، وأعدتني إلى أيامها المواضي ، فتركتني أعيش في نجد جسداً بلا روح ، وأحيا في الحاضر شبحاً بلا قلب .

ولا غرو فالأسى يبعث الأسى ، وكما يقول الشاعر العربي ابن نويرة ، وكل من في المآتم يبكي ولكن يبكي على أمواته كما يقول الفيلسوف الإنكليزي سبنسر .

قولة الحق يا أخي ظافر ، لقد كنت موفقاً في تأليف الكتاب ، وكنت عظيماً في كتابة (الإهداء) ، وأنت أوفى ابن عظيم لأبيه ، وتلميذ معهد لمعهده . ولئن بقيت وحدك بعد الأب والأم ، والأخ والعم ، فلقد بقوا كلهم فيك ، وما يتقوض بيت كنت عميده ولو ذهب عميده ، ولقد لبث بيتهم بك مفتوحاً ، وذكرهم بك سارياً ، وعزّهم بك قائماً ، وما مات من خلّف مثلك ، رحم الله أباك الرجل العظيم ، وأخاك النابغة المجاهد ، وعمك الفاضل النبيل ، وأطال عمرك ونفع بك ، وأمتع بأدبك .



الفهرس